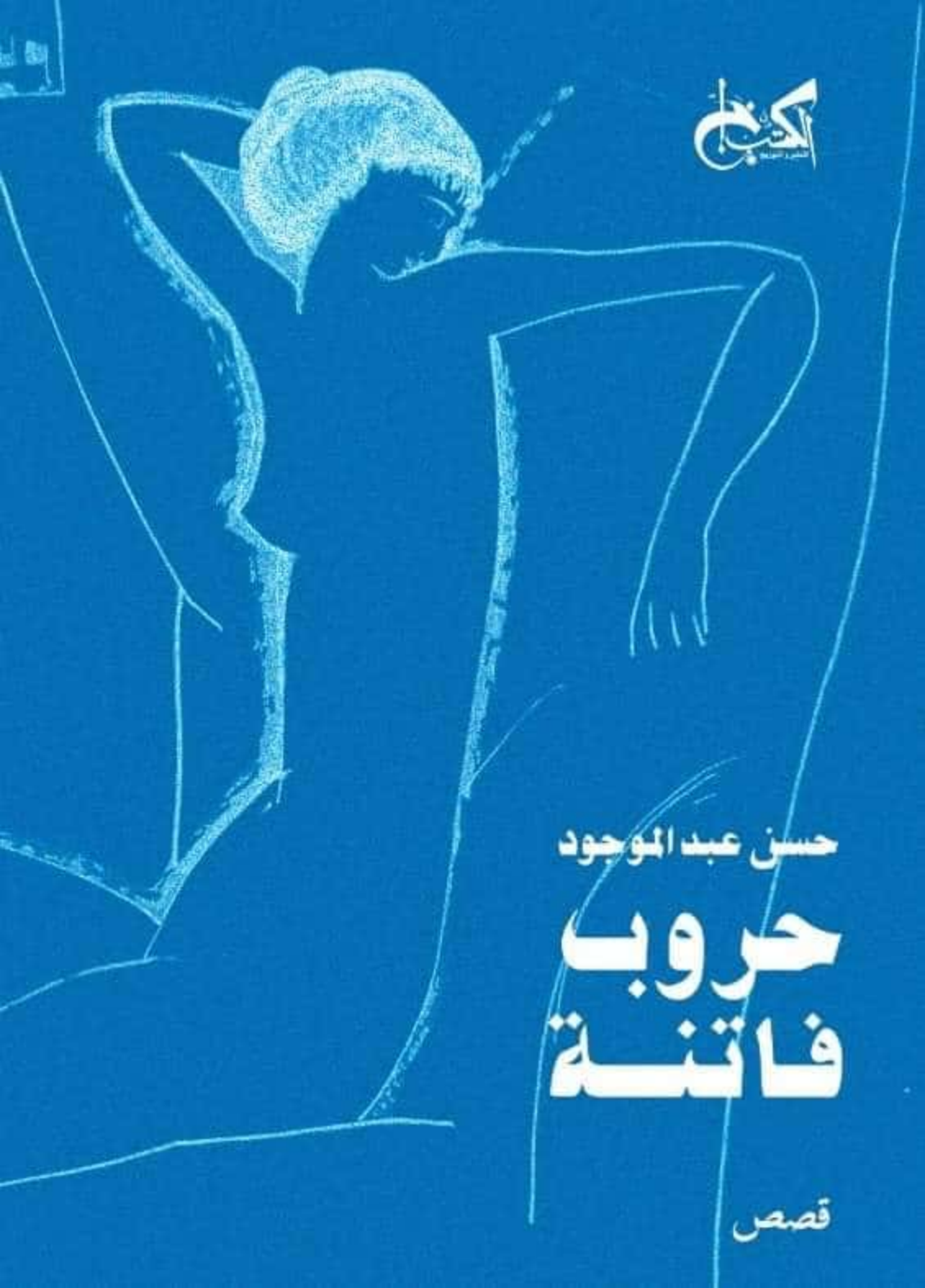

حسن عبد الموجود

حروب فاتنة

قصص

حُروبٌ فاتنةٌ

*

خروبٌ فاتنة
قصص
الطبعة الأولى: ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٨١٣٨ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي: ١-٠٦٣-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Copyright ® 2018 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution. The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.

فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
عبد الموجود، حسن
حُروبٌ فاتنةٌ : قصص/ تأليف حسن عبد الموجود. ـ ط١. – القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
١٣٢ ص، ٢٠ سم
تدمك: ١-٠٦٣-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
١ – القصص العربية
أـ العنوان
رقم الإيداع: ٨١٣٨
الطبعة الأولى ٢٠١٨

إهداء إلى

صوفي حسن وأحمد شافعي.. الأمل والأخوة

دراجة تعيد رفيق الحزب القديم

بأقل قدرٍ من الالتفاتات، مسح بعينيهِ المكان من جميع اتجاهاته، وقبل أن يطمئن تمامًا إلى خلوه من أي عين راصدة، وبينما ينتظر مونيكا على رأس شارع المنيل بدأ يفكر، بقليل من السخرية، في أنَّ له اسمين، وفي أن مونيكا بالذات لا تعرف أيًا منهما.

كثيرًا ما يفكر في مسألة الاسمين هذه، في الاسم الذي يريد أن يعيش طويلاً منهما؟ يعرفه كل الرفاق في الحزب الشيوعي بـ"توفيق" أو "تو"، بينما لا يعرف سوى أقليةٍ منهم اسمَه الحقيقي "عبدالملاك"، بل إن رئيس الحزب نفسه ذات مرة، نسي ذلك الاسمَ في مناقشة، فشل تمامًا في تذكُّره فاضطر إلى الاعتذار إليه في النهاية، خاصة بعدما منحَه اسمًا جديدًا: "عبدالرسول"، لم يحب اسم توفيق في البداية، غير أن الحياة ساعدته على الاقتناع به، فليس في محيطه أحدٌ يناديه منذ أعوام بعبد الملاك سوى مجموعة محدودة للغاية من البائعين في الشارع الذي يسكنه. لا أب، لا أم، ولا أصدقاء خارج العمل الحزبي، والسري، وهو يميل أيضًا إلى عدم الخلط بين الزمالة والصداقة، بالتأكيد يحب

رفاقه ومستعدٌ للدفاع عنهم بحياته لكنه غير متيقنٍ من أنهم يتعاملون معه باعتباره صديقًا. عرفوه وعرفهم في الغُرفِ المُقبضة المُرتعشة، وصديقه الوحيد الذي جنَّده بالحزب مات منذ فترةٍ في حادثة سير، دائمًا حادثةُ سير.

لا يخشى الموتَ بقدر خوفه من النسيان، لا يرغب في شهرةٍ بقدر رغبته في بقاء اسمه أطول وقت، ولو في ذاكرة شخصٍ واحد.

جاءت مونيكا.

ينتظرُها غالبًا في تقاطع يسمح له بمراقبة جميع الاتجاهات بدون أن يشك فيه أحد. تعليمات الحزب تقتضي منه تأمين المكان، والانصراف فورًا لو شك في حدوث شيء خاطئ، فمجرد تسرب ذلك الإحساس إليه معناه أن هناك أمرًا يدور في الخفاء، ورغم أنه لا يمتلك دليلاً أحيانًا على وجود شيء خطير إلا أنه يغادر المكان فورًا، كان يسلّي نفسه، في أثناء انتظار مونيكا، بمراهنة نفسه أي شارع ستأتي منه؟! وكان في الأغلب يكسبُ الرهان.

بعد عشرات المرات التي انتظر فيها مونيكا بدأ يُطوِّرُ الرِهان، يقولُ لنفسه إنها ستأتي وهي ترتدي جيبًا سوداء وقميصًا "كاروهات"، كان مندهشًا لأنها لا ترتدي البنطلونات، رغم أنها ستمنحها حرية أكبر في الحركة، تكرهُ مونيكا البنطلونات، يستطيع أن يقول ذلك بيقينٍ بعد أن قابلها بانتظامٍ على مدار عامين، وبرغم أنها ترتدي الجيبات إلا أنه لم يستطع أبدًا فهمَ ذوقها في الألوان، ولم ينجح مرةً في تخمين لون الجيب

التي سترتديها اليوم، ولا لون البلوزة أو القميص، وهل سترتدي أصلاً بلوزة أم قميصًا أم فستانًا؟! ولكنه التمس لنفسهِ العذر، فهي لم تُكرر أبدًا ما ارتدته سابقًا، وفكّر في أنها تملكُ مصنعًا لإنتاج الجيبات والقمصان والبلوزات والفساتين والجواكت، ربما تكون ابنة أثرياء، إنه يعلم أن الحزبَ يضم رفاقًا من الأغنياء، والفقراء، وكان يفرح حينما ترتدي جيبات قصيرة للغاية تكشف معظم ساقيها، وحينما تملُّ من الشارع الذي راهن عليه يطالعُ ساقيها، وطريقة خطوها، ثم يضطر - حتى لا تلحظ نظراته إلى ساقيها العاريتين- إلى مطالعة وجهها الجميل، ثم بدا له أن هذه هي أفضل لحظات حياته، تلك التي تظهر فيها مونيكا، كانت مكافأته الحقيقية عن عمله السري، وتساءل ماذا لو ظهرت شابةٌ أخرى بدلاً منها يومًا ما؟! واكتشف في تلك اللحظة فقط أنه يحبها، وبالصدفة في هذا اليوم ابتسمت على غير العادة، كأنها أدركت ما يدور برأسه، أو كأنها هي الأخرى شعرت بحبه، وبينما يتطلع إلى فمها المبتسم فكر في أن اسمها الحقيقي ربما يكون نادية.

لم يسألها قط عن اسمها، كما لم يسأل أحدًا عنه، لم يكن مشغولاً بالتقليب في شؤون الآخرين، رغم أنه مقتنع بأنه ربما يجد في ذلك متعةً لا تقل عن متعة التقليب في الأوراق القديمة بمكتبه، يترك مسافةً مناسبةً من الجميع تحافظ على سلامه النفسي، تلفت حوله مجددًا، ثم مد يده إليها بـ"ظرف".

كثيرًا ما يفكر في تلك المهمة السهلة التي يكلّفُه الحزبُ بها دائمًا، ويشعر بالضيق، لكن لأنه يحترم العمل الحزبي ينفض الضيق عنه

سريعًا، ومرور الوقت نشأت علاقة من طرف واحد بينه وبين مونيكا، يطيب له أن يتخيلها دائمًا بصحبته وهما يقومان بأدوار بطولية ضد الألمان والسوفييت والإسرائيليين والبوليس المصري. كانا جاسوسين رائعين طوال الوقت، ولكنَّ مخيلته لم تكترث قط بتحديد الجهة التي يعملُ لحسابها هذان الجاسوسان، غير أنهما بالتأكيد، يمثلان المعسكر الآخر، معسكر القلة، معسكر محاربي الشرِ النبلاء.

كل قصصهِ حزينة، تموتُ فيها مونيكا ميتاتٍ بشعة، بالرصاص وتحت وطأة تعذيب رجال الأمن، يكسرون عظام يديها ويخلعون أظافرها، وينزعون خصلات من شعرها بعنف، لدرجة أن تلك الخصلات تخرج بجزء من جلد رأسها، في كل مرة يبكي، ويشعر بالذنب لأنه قتلها عددًا مهولاً من المرات، لكنه فكر كذلك ـ ولا يدري لماذا ـ أن امرأة بهذا الجمال لم تُخلق لتعيش طويلاً، وربما كان جزءٌ منه يريدها أن تموت، ربما جزءٌ منه يعلم أنها التهديد الحقيقي، وربما الوحيد لعزلته في الشقة الخاوية، شرنقتهِ التي ستزدادُ ضيقًا عليه بعد أن يصابَ بالمياه الزرقاء. وبرغم أنه قتلها مراتٍ لا حصرَ لها في خياله، إلا أنه ينتظر في لهفة تكليف الحزب له بمقابلتها، وفكر مرة أن الحزب إذا ألغى هذه المهمة، أو عهد بها إلى غيره، فإنه سيعترض، حتى لو كان رئيس الحزب نفسه، سيعترض، وعلانيةً، مهما كان احترامه للتراتبية. ولو أن رئيس الحزب قرر التوقف عن تكليفه بمقابلتها لإمدادها بالمال لربما يعارضه علانية، ثم بدأ يفكر على نحو خطير، في أنه قد يترك العمل الحزبي السري لو أنهم أجبروه على عدم رؤيتها، ثم خَطَرَ له

بعدها أنه شخصٌ يحتاج إلى تصفية نفسه من شوائب الدراما، كما يصفي أحيانًا كوبًا من الينسون بمصفاة.

لم يحاول ببساطةٍ أن يتحدثَ معها مرةً؛ ربما خوفًا من ردة فعلها، وربما حفاظًا على المسافة المناسبة التي أرادها دائمًا لنفسه، حتى فوجئ بنفسه يقول لها في أول لقاء بعد ابتسامتها إنه يُحبُها، فابتسمت من جديد، وبدت له ملائكيةً وطيبةً للغاية، لكنها لم تتفوه بحرف، ثم ابتعدت عنه، ككل مرة، كأي مرة.

قابلها في كل مكان بالقاهرة تقريبًا، أتعبته مونيكا، يضطر ـإذا أراد مقابلتهاـ إلى ركوبِ الترام من مصر الجديدة إلى امتداد رمسيس ومنه سيرًا على الأقدام إلى أبعد نقطة في السكاكيني، أحيانًا يذهب بأتوبيس أو ميني باص أو تاكسي إلى مصر القديمة، وأحيانًا إلى حلوان، أحيانًا إلى المعادي وأحيانًا إلى أحراش الجيزة، أحيانًا إلى وسط البلد وأحيانًا إلى روض الفرج، أحيانًا إلى أبعد نقطة من شرق القاهرة ثم إلى أبعد نقطة من غربها، أحيانًا إلى آخر الشمال، وأحيانًا إلى آخر الجنوب، فحدث أن قرر الحزبُ إهداءَهُ دراجة.

أرسلوا إليه في ذلك اليوم، وأبلغوه بأن موعد التجمع في فيلا بجاردن سيتي يمتلكها طبيب قلب شهير، كانت المرة الأولى التي يراه فيها، يقف واضعًا سيجارًا ضخمًا في فمه، بينما يقف إلى جواره رئيسُ الحزب واثنان من الرفاق يعرفهما جيدًا، أشار رئيس الحزب إلى الدراجة، ثم بدأ يلقي خطبةً عن شخص يُدعى "جوزيف روزنتال"

الجواهرجي اليهودي الذي قدّم خدماتٍ جليلة إلى الحزب في بداياته. لا يعرف ما الذي يريد أن يقوله رئيس الحزب على وجه التحديد؟" وفكر في أنه ربما يريد الربط بين الجواهرجي والطبيب، وما قدماه من أموال أو إعانات إلى الحزب. فكر في ذلك رغم أنه لا يعرف شيئًا عن الجواهرجي، ولا عن الطبيب. ورغم أن رئيس الحزب لم يقل ذلك أيضًا، انتهت الخطبة عمومًا بدون أن يخرج منها بفائدةٍ واحدة. واقترب منه أحد الرفيقين الآخرين بورقة وطلب منه توقيعها. عرف الآن أن تلك الدراجة عُهدةٌ عليه أن يعيدها يومًا ما. قال رئيس الحزب إنهم أرادوا التخفيف عنه، خاصة في الأماكن التي لا تصلها المواصلات العامة، شعر بالامتنان تجاه رئيس الحزب. فكل شيءٍ على ما يبدو يشير إلى أنه صاحب الاقتراح. مضى كل شيء في الأيام التالية بشكل جيد. كان يستعيد ابتسامة مونيكا فيشعر بالثقة الشديدة. لدرجةٍ جعلته يتمادى ويطلب مقابلتها في أحد مقاهي وسط البلد. كان يتجه إليها بينما يفكر في الرفيقين المتزوجين اللذين لم يكتشفا أنهما ينتميان إلى نفس الحزب إلا بعد أن أوقفهما البوليس في السويس. وبدأ التحقيق معهما سويًا.

في اللقاء التالي ذهب بالدراجة، طوال الطريق يفكر في رد فعلها، صحيح أنها ابتسمت، لكنها تركته أيضا وذهبت. لم تقل شيئًا. يجب أن تقول شيئًا هذه المرة، لا يكفي أن تبتسم، بل لا يجب أن تبتسم، حتى أنه فكر أنه سيرغمها بطريقة ما على الكلام، من حقه أن تتكلم، حتى لو لتقولَ لا، أنت رفيقٌ حزب وحسب، أو أنا متزوجة، أو أنا راهبةٌ

في دير؛ لكنها لم تقل شيئًا من ذلك، بل جاءت وظهرت من بعيد ككلِ مرةٍ، مرتديةً فستانًا أبيض فيه زهورٌ زرقاء صغيرة جدًا وداكنة، لم يكن بحاجة إلى أن يقول لها أي شيء، بل هي قالت له: "أنا أيضًا أحبك"!

لم يسلمها الظرف، ولم تطلبه منه، وخلافًا لكل الاعتبارات الأمنية، ولكل تعليمات الحزب وتعاليمه، ركبت أمامه على الدراجة، وانطلقا في هواء سبتمبر، على كورنيش المعادي.

قالت له مونيكا إنها تحبه من اللحظة الأولى التي شاهدته فيها، ثم رتبت كل شيء، لن يتحدثا أمام الرفاق في الحزب عن زواجهما، فهناك احتمال بأن يفصلا بينهما فى المهمات، ربما، وربما لا. كانت تريد الاستمرار في مقابلته بالشارع، وحينما أخبرته بذلك قال لها إنه سيموت لو توقف عن مقابلتها بالشارع؛ سيستمران إذن في إخلاصهما للحزب، وفي أداء مهامهما فيه، فيخرج هو من البيت لتسلُم المال وتسليمه، وتخرج هي من نفس البيت لتسلُّم المالِ، واتفقا على عدم الكلام في شؤون الحزب مطلقًا، وليبق كلٌ ملتزمًا بخليّته، وبما لديه من تعليمات، واتفقا على أن يخبر جيرانه فقط أنه تزوج وأن زوجته ستأتي خلال أيام، من الجيد أنها أيضًا الابنة الوحيدة لأبوين يقطعان خطوات حثيثة نحو الموت بلائحة مكتنزة من الأمراض المزمنة والخطيرة، وفُرتْ الشَّاهدين، بعد أن وثّق هو إسلامَه، وشاهد اسمها لأول مرة في وثيقة الزواج. ليست نادية بل هناء.

لم يكن مشغولاً في أي وقت بالفوارق بينهما، الفوارق التي تكشَّفت له سريعًا، امتلاك أهلها بيتًا كبيرًا من دورين في الزمالك، امتلاكها ملابس لو ارتدت كل يوم منها قطعتين أو ثلاثًا لكفتها حتى نهاية عمرها، اضطرت إلى إحضار خمس حقائب ضخمة من ملابسها حينما جاءت إلى شقته وقالت له إنها لكي تحضر بقية الملابس عليها أن تملأ هذه الحقائب وتفرغها عشر مرات على الأقل، كانت أيضًا خريجة طب، بينما هو خريج آداب، لم تحمل -كما قالت له بشكل عابر- همَّ المالِ أبدًا، بينما يصرف هو من ريع مبلغٍ بسيطٍ تركه له أبوه في دفتر توفير، ويضطر إلى تناولِ الطعام مرتين فقط في اليوم ضغطًا للنفقات، ولا يدري ما كان سيحدث إن لم يترك له أبواه هذه الشقة بعد رحيلهما.

اعترفت له قبل أن يلمسها بأنها ليست عذراء؛ عاشت قصة حب مع أحد زملائها بالجامعة، لم تمارس الجنس معه سوى مرةٍ واحدةٍ في شقته، غير أنه قطع علاقته بها بعد تخرجها، كان عليها بالقطع أن تقول له ذلك قبل زواجهما، ولكن هل كان رأيه سيتغير؟! هزَّ رأسه -بمعنى أنه لا عليها- بينما هي تتحدث، لم تقل له حتى الآن الطريقة التي جُندت بها في الحزب، ومن جنَّدها؟ يشعر بأنها بسيطة للغاية، ومع هذا لم يسألها حتى الآن عن الطريقة التي سيصرفان بها على المنزل، ولا لماذا قالت له إنها أحبته منذ اللحظة الأولى، كان يشعر بالإطراء كلما تذكر هذه الجملة، وقرر أن يتركها لتخبره هي من تلقاء نفسها، لا داعي للعجلة، خصوصًا وأن مصيرهما يكاد يكون متطابقًا، لن يذهب كل منهما بعيدًا عن الآخر.

جاء تكليف الحزب بالمهمة بعد خمسة أيام من زواجهما. خططت أن تذهب هي إلى حلوان ومنها إلى وسط البلد، وخطط هو أن يذهب إلى مصر الجديدة، ومنها أيضًا إلى وسط البلد. تبادلا حديثًا بسيطًا في الصباح، وأراد أن يكسر شيئًا من قواعدهما الصارمة بالتحدث عن العمل داخل الشقة؛ وقرر -وهو يتطلع إلى فستانها الأزرق المزين بورود بيضاء- أن يخبرها شيئًا عن خطبة رئيس الحزب قبل أن يسلمه الدراجة. وقال إنه لا يعرف حتى الآن السبب في حديثه عن جوزيف روزنتال فقالت إنه أحد مؤسسي الحزب؛ شعر باندهاش طفيف، بينما يتابعها ببصره وهي تغيب خلف باب الشقة.

أمامه بعض الوقت قبل أن يبدأ رحلته للقاء مونيكا. ويعرف ما سيفعله في هذا الوقت: سيعلق في البيت صورها التي أحضرتها معها. صور هناء؛ مضى من حجرة إلى حجرة يعلق الصور، وهو يشعر بأن روحها تنتقل معها إلى صورها، بل ويرى الصور تُصدرُ إضاءةً بيضاء هادئة في كل زاوية من الشقة.

وقف يؤمّن وينتظر بنفس لهفته القديمة، ويخمّن، وهو يقف في تقاطع شارعي شريف وعدلي، أنها ستأتي من شارع فؤاد الأول، منتظرًا إطلالة فستانها الأزرق، كان يتلهف لرؤية وجهها قادمةً من بعيد، بشكل ما يتوق إلى رؤيتها من بعيد، بدلاً من رؤيتها على بعد سنتيمترات منه، ستظهر وسيسلمها الظرف مكتفيًا بابتسامة، وبكلمة السر المعتادة: "الضمير"، فكر "تو" لماذا اختار الحزب هذه الكلمة؟ هل يريد أحد تذكيره بضميره، خاصة وهو يحمل نقودًا؟ ربما يكون في

الحزب مَن يشك في ذمته أو يسخر منه؛ شعر بغضب عارم، واندهش من هذا الغضب، فالطبيعي في عملهم أن يكونوا حذرين، مرت به سيارةُ إسعافٍ مسرعة، وانتبه إلى جلبة في شارع عدلي، وزحام من الناس.

فستانها أطلّ بوجلٍ من أسفلِ أوراقِ الجرائد قبل أن يحملها المسعفون؛ رحلت مونيكا بدون أن تودعه!

سارت الأمور.

دائمًا تسير الأمور، كان محطَّمًا إلى أقصى درجة وهو يضع الظرف على مكتب رئيس الحزب، قائلاً إن مونيكا لم تستلم المال، أراد الإبلاغ بأنه لن يحضر مرة أخرى إلى الحزب، غير أن شيئًا غامضًا منعه، حاولوا التواصل معه بعد ذلك، لكنه لم يفتح الباب لكل الأشخاص الذين طرقوه، جاء رئيس الحزب بنفسه في إحدى المرات، وبعد طرقٍ متواصلٍ قال بصوتٍ عالٍ إنه يعرف بوجوده خلف الباب حالاً، وكان هذا صحيحًا، وإنه من العيب ألا يفتح له، وقد وجدت كلماته صدى ولو بسيطًا داخل "تو"، الذي شعر بأنه من الواجب أن يفتح الباب، غير أن شيئًا غامضًا سمَّرهُ في مكانه.

أصيبت عيناه بالمياه الزرقاء، وكان ذلك مؤلمًا بالنسبة له أكثر من تألمه لرحيل مونيكا؛ لم يعد بوسعه أن يشاهد صورها جيدًا، فرؤيته صارت ضعيفةً للغاية، كان يرفع يوميًا صورةً معينةً لها، يضعها بين مريم العذراء ومارجرجس وهو يقتل الوحش، صورةً تضحكُ فيها،

ويجلس باكيًا ومتخيلاً أن دموعًا زرقاء تنساب منه صانعة ما يشبه البحيرة أسفل قدميه.

لمدة عشرين عامًا تالية لم يقابل "تو" أشخاصًا باستثناء أطبائه، وبائعي الشارع ثم أبنائهم، توقف عن التفكير في اسمه الحقيقي تمامًا، كان يفكر في الحزب خاصة حينما تصل إليه بعض أخباره، علم أن رئيسه وكثيرًا ممن يعرفهم ماتوا، أو امتلأت بهم المعتقلات، وبعض من خرجوا منها كوَّنوا أحزابًا مُعلَنة، لم يعد مهتمًا كذلك بمسألة النسيان بعد رحيل مونيكا، فقد كانت الشخص الوحيد الذي قد يتذكره إلى الأبد، أصبح لا يخشى الموتَ ولا النسيانَ، كان يتصور أن النسيان شيءٌ خارجيٌ وبعيدٌ ويتعلقُ بالآخرين، لكنه اكتشف كذلك أنه شديد القرب منا، النسيان مرعب إذا قرر غزونا، ينهي علاقتنا بالعالم حتى قبل أن يقرر ذلك العالم نسياننا؛ زحف ألزهايمر على خلايا عقلِه وفجرًها واحدةً تلو الأخرى كحبات ذرة تتحولُ إلى فيشار، كان يخشى أن ينساه الآخرون، ولكنه الآن بدأ عملية عكسيةً بنسيانهم، ولهذا قرر أن يبدأ بتدوين كل شيء، في دفترٍ لا يفارقُه إلا قليلاً، لقد غادرته مونيكا، وظلت صورُها معلقةً على الحائط وفي غرف قلبه الأربع، ويخشى أن تغادره إلى الأبد حينما تزحف جيوش ألزهايمر عليه لتغطي مسامَه، لكن لحسن الحظ أنه حتى هذه اللحظة لم ينس شيئًا يتعلق بها، دائمًا يتذكر ابتسامتها وهي تتسلم منه الظرف بعد الكلمة المعتادة التي كرهها دائمًا "الضمير".

ذات مرة. وبمناسبة هذه الكلمة، شعرَ "تو" بالقلق، حينما طالع في إحدى الأوراق كلامًا عن دراجةٍ سلّمها له الحزب، وفكر في أن بعض الرفاق ربما اتهموه بالسرقة. فمن يدري؟! شعر بأنه من العيب أن يفكر هكذا. ومع هذا لم يستطع أن يوقف تفكيره حول الدراجة، في شبابه لم يكن الكهل تو يخشى الموت أبدًا. لكن أرعبته فكرةٌ وحيدة، أن يتخلى عن ضميره يومًا ما. ووجد في مونيكا مرآةً لضميرهِ، لو أن الضمير عملةٌ لصارا وجهيها. لكن الحزب لم يتوقف أبدًا عن تشكيكه في نفسه وإلا لماذا اختار كلمة "الضمير" لتكون كلمة السر؟ لم يتذكر تو مكان الدراجة بالضبط. ولكن بعد عملية بحث وجدها في غرفةٍ أغلقها منذ سنوات. غرفةٍ امتلأت بطبقاتٍ كثيفةٍ من الغبار، خصصها للأشياء التي لا يريد رؤيتها مجددًا. لا بد أن يعيد تلك الدراجة إلى الحزب. ليس في عهدته شيءٌ غيرها. لكنه اكتشف أن الضمير لم يكن دافعه الأساسيْ لإعادتها. وقد تذكر بصعوبةٍ أن الحزب لم يعد موجودًا في الواقع. وتذكر بصعوبةٍ كذلك أن الرفيق الذي سلمه ورقة العهدة ليوقع عليها صار رئيسًا للحزب الستاليني. هو لا يعرف، أو بالأدقِ لا يتذكرْ أحدًا سواه. أعاد تنظيف الدراجة، وفكّر في حملِها حتى مكان الحزب. لكنه قال لنفسه إنه يجب أن يكون أكثرَ بساطةٍ، لن يعلّقَ أحدٌ على اتساخ إطاريها إن اتسخا أصلاً، المهم أنها في مجملها تبدو بحالة جيدة. طلب من موظف الاستعلامات أن يقابل رئيس الحزب، لإعادة عُهدة إليه. مشيرًا إلى الدراجة. والموظف انفجر في الضحك، بشكل أزعجه للغاية. كان الموظف مطالبًا بتفسير سبب ضحكته الزاعقة

وعوضًا عن هذا قرر التهرب ونقل المشكلة إلى سكرتيرة رئيس الحزب، طلب "تو" بتهذيب من السكرتيرة الجميلة مقابلته، ولا يعرف ما الذي جعله ينطق اسمه مسبوقًا بكلمة الرفيق، فضحكتْ، ولم يعرف لماذا ضحكت، إنه لم ينطق سوى بكلمتين: (الرفيق، واسمه)، ثم فجأة، ولأسباب لا يعرفها كالعادة، تذكر قصة أهل الكهف، وحاول أن ينفضها سريعًا عن ذهنه، متطلعًا إلى شفتيها اللتين تتحركان بلا توقف، كانت تعيد كلامها على ما يبدو: "الأستاذ في مؤتمر بأوكرانيا لغاية آخر الأسبوع!" ثم: "حضرتك تأمر!". هل يقول لها؟! ربما تضحك مثل الموظف، بالتأكيد كان يسخر منه، وربما تسخر هي كذلك، ومع هذا قال لها فجأة إن هذه الدراجة عهدة تسلمها من الحزب الشيوعي، ويريد أن يعيدها، والسكرتيرة المندهشة والمبتسمة ربما بسخرية، كما يرى، قالت له إن هذا الحزب لم يعد موجودًا الآن، ثم تابعت: "فات ربع قرن تقريبًا!". حسنٌ.. ماذا تريد منه أن يقول؟! هذه المعلومة يعرفها، عليها أن تتصرف، أن تأتي له بنائب رئيس الحزب، أو بأحد المسؤولين، لكنها قالت إنها يمكنها أن تقوم بالأمر لو أراد؛ فكر قليلاً، ثم أومأ برأسه إيجابًا، فأحضرت السكرتيرة مصورًا، وقالت إنها ستحتفظ بالصورة لرئيس الحزب.. ويمكنه العودة في وقت لاحق، وتركته للمصور ثم عادت بعد قليل بصحبة شابين، قالت إنهما صحفيان من جريدة الحزب، هز رأسه ليرد تحيتهما، محاولاً من خلف الضباب الذي يحجب رؤيته أن يعرف أيهما أكثر طولاً، كانا يسألانه بشكل ـرآه غريبًاـ عن قصته، وعن الحزب الشيوعي، والعهدة، ولماذا اختفى طوال

كل تلك الفترة؟ وجد صعوبةً في التذكر، كما شعر بالعجز عن إجابة تلك الأسئلة، فهو بصدق لا يعرف لماذا ترك الحزب، ولا يجد شيئًا يمكن أن يُقال ولا يكون تافهًا عما فعله طوال تلك السنوات، كان حريصًا وهو يتحدث على عدم ذكر مونيكا نهائيًا، وبرغم بساطة ما يقوله وبرغم أنه شذرات إلا أن الصحفيين دبَّجا قصةً طويلة نشراها بصورة له مع الدراجة.

بعد أسبوعٍ على هذا الموقف قابله رئيس الحزب بشيء كبير من الترحاب، تطلَّع إليه "تو" وكان شيء ما جوهري قد تغيَّر فيه، ربما في ملامحه، لا يقصد تقدمه في العمر، ولكن تلك السمنة المفرطة التي غزت وجهه وجسده، السمنة التي تنفخ بذلته اللامعة السوداء، لم تعق المياه الزرقاء عينيه عن رؤية الرفيق القديم وهو يتحدث بكثير من الحماس والمرح والترحاب، قبل أن يقوده إلى غرفته، اكتشف "تو" في تلك اللحظة أنه يجرُّ معه الدراجة، بينما يهرول رئيس الحزب باتجاه مكتبه الضخم ويحضر الجريدة، ثم يطوي نصفها العلوي مشيرًا إلى صورة "تو"، تلك الصورة التي التقطها له مصور جريدة الحزب، قائلاً: إن العنوان أسفلها احتاج منه إلى أكثر من ساعة، ثم قرأه بصوتٍ عالٍ، وبنفس لهجته الحماسية: "الدراجة تعيد رفيق الحزب الشيوعي توفيق"، وهنا صفقت السكرتيرة فانتبه "تو" إلى وجودها معهما، ثم أشار رئيس الحزب إلى الدراجة قائلاً إنه لن يكتفي بإعادتها فقط، لكنه أيضًا سيضعها في بهو المقر لتكون رمزًا للحزب الجديد ومبادئه، لكن "تو" بدا عليه عدم الانتباه، وقال بعد كثير من الصمت إنه مدين للحزب بشيء

آخر غير الدراجة، معلومة، معلومة لم يعرفها الحزب قط عنه وعن مونيكا، وتساءل رئيس الحزب: "مونيكا؟!".. غير أن "تو" لم ينطق، وفكر كيف ينسى مونيكا؟! كيف لم يبقها جمالها في ذاكرته؟! نبلها؟! التزامها بالقضية؟! استشهادها في سبيل الحزب؟! نهض وترك الغرفة، ترك الحزب كله، وخرج إلى الشارع، في وسط البلد، ومعه الدراجة، وحاول استنشاق أكبر كمية من الهواء المنعش الذي يهب باتجاهه.

الغرف المنسية

أحكمتُ إغلاق الجاكت جيدًا، كان صدري يُطلق أصواتًا تشبه صوت سريري المتهالك حينما أتقلَّب عليه، فبراير ينتظرني بجنود لا قِبل لي بها، حملتُ دفتر العمل متجهًا إلى غرفة نومي، عليَّ أن أُقبِّل رأس زوجتي، كما جرت العادة منذ ثلاثين عامًا، دائمًا ما أقبِّل رأسَها، ودائمًا ما تبتسم، لكن بعد خطوة واحدة على تحركي باتجاه الغرفة تذكرت أنها ماتت منذ أسبوعين تقريبًا.

دواء السعال يصنع ما يشبه سحابة دخان تحيط بعقلي وعينيَّ وتمنعني عن رؤية الأمور بشكل جيد، ليس هناك داعٍ للعجلة فـ"مكتب الاتصال" لن يتحرك من مكانه، ابتسمتُ متخيلاً لو أن الحكومة قد التفتت إليه أخيرًا، وقررت إغلاقه، أكملت طريقي، بعد توقف لثانية أو اثنتين، إلى غرفة النوم، وفتحت دولاب زوجتي، ومددت يدي ساحبًا أول ثوب يقع في يدي، شممتُهُ بعمق، غير أن الزكام حجب عني الرائحة، في الواقع لا أحتاج إلى حاسة الشم، بإمكاني استدعاء رائحتها في أي وقت، كان أبي يقول إن الرائحة بلا ذاكرة، لكن رائحة زوجتي

تلبد في عمق ذاكرتي، يكفي أن أتذكر إحساسي المحبب حينما كنت أدُس أنفي في صدرها الدافئ، صيفًا وشتاءً، لتجتاحني رائحتها، غير أن تلك الرائحة جرَّت وراءها إحساسًا بالذنب، أدركتُ أن ظهور فتاة النظافة رغدة سيغير شيئًا ما من طبيعة حياتي، تلك الفتاة تتحيَّن التفاتاتي إليها وتبتسم، تعرف أنني أنظرُ إليها، وتنظرُ لي فجأةً محاولةً القبض على نظراتي، وتنجح غالبًا، تقبض عليها عند صدرها، أو مؤخرتها، أو فخذيها.

منذ أيام أراد الموظفُ أن يتحدث، وقد كانت هذه هي المرة الثالثة التي يبدي خلالها رغبةً في الحديث منذ ترقيتي إلى مفتش، غَمغَمَ معتذرًا عن أنه سيصيبني بالصداع، لكنني حركت رأسي بما يعني: لا عليك؛ قال إنه يشعر بالتعب خلال الفترة الأخيرة، وقد فكَّرَ في أن يُحضرَ فتاةً يعرفها تسكن بالقرب منه للقيام بأعمال النظافة، وعبَّر عن استيائه؛ إذ يأتي أحيانًا، بعد غياب ليوم أو اثنين، ويجدني قد نظفتُ المكان، ثم قال إنه سيتكفل بأجر الفتاة، إذا لم يتسع له بند النثريات، فكرتُ قليلاً، وقلتُ لنفسي: فتاةٌ في هذا المكان؟! ماذا ستقول بعد أن تكتشفَ أن المكتب يخلو من أي موظفين سوانا؟! وفي مصلحة حكومية لا يرتادها المواطنون؟! ماذا لو شاهدت صورة الزعيم منفردًا؟! كيف ستفكر؟! فجأة عاد الموظف للكلام دون أن يستأذنني، وقد أدهشتني جرأته فعلاً، قائلاً إنها جاهلة ولا تفهم شيئًا وعليَّ ألا أقلق من شيء، التفتُ إليه محاولاً مداراة الدهشة التي تسيطرُ عليَّ، كان يُبدي إماراتِ ذكاءٍ يبدو أنه كتمَها طوالَ الوقتِ خلفَ ملامحِه البليدة، إنه يعلم ما يدور في

رأسي، وقد اختارَ الوقتَ المناسب للحديثِ قبل أن أسترسلَ في أفكارٍ ستنتهي في الأغلبِ برفض طلبه، حسنٌ.. قلتُ ولم لا؟! لكنني أخبرته أنني من سيمنحها المال ـومع إلحاحهـ قلتُ: "تمام.. أنا التلتين وأنت التلت".

تمنيتُ لو كانت زوجتي موجودة لأخبرها أنني أخيرًا سأتعامل مع امرأةٍ سواها، وأسألُها ساخرًا إن كانت تشعرُ بالغيرة، كانت بالتأكيد ستضحك وتقول إنها مجرد عاملةُ نظافة، لماذا أشعرُ بالذنب؟! أنا لم أقتلها! كلُ ما هُنالك أنني سمحتُ لها بأن تسبقني إلى الآخرة؛ عبر القطار في هذه اللحظة، وشعرتُ كالعادة أن القضبان تمرُ من عقلي، ولمرةٍ جديدةٍ أتطلعُ إلى الجدران لأتأكد أنها تقف ثابتة في مكانها، ثم تحركتُ لإعادة صورة "ناصر" إلى وضعِها الطبيعي بعد أن أمالها القطار. كان ينظرُ إليَّ كالعادة، لكنه لم يستطع مزاحمة زوجتي كثيرًا في رأسي. يبدو أنها ستنتصرُ في معركة الحنين، ربما لأنه رحل قبلها بوقتٍ طويل. واسيتُ نفسي مئاتَ المرات لرحيله، وها أنا أبدأ رحلة مواساة جديدة معها، لمدة ثلاثينَ عامًا كانت تودعُني من شباك البيت، في مرضِها كانت تقفُ واضعةً بطانيةً فوق رأسها وحول نصفها العلوي ملوِّحة لي بأصابعها، وجهُهَا آخرُ ما أراه قبل أن أتحرك إلى محطة القطار على بُعد أمتار، وأول ما يستقبلني بعد عودتي من القاهرة، لكن يبدو أن الأمر كذلك لن يقتصر عليهما فقط، الزعيم وزوجتي، فها هي رغدة تلُحُ عليَّ بقوة.

لم تمنحنا الطبيعةُ جيرانًا، ترك لي أبي قطعةَ الأرضِ التي بَنيتُ عليها ذلك البيت، في منطقةٍ تشبهُ المثلث محصورةٍ بين شريطِ القطار وجزءٍ من الأرض كنت أزرعه ـ قبل أن يوقفني التعب والملل ـ ومنطقةٍ خاليةٍ يملكُها شخصٌ لم يظهر أبدًا كل هذه الأعوام، لم يبقَ لي إذن سوى موظف القاهرة الوحيد، وعددٍ من زملاء القطار ومُحصِلي التذاكرِ الذين ألفوا وجودي، والآن يمكنني التفكير في إضافة فتاة النظافة إليهم، زملاءُ القطار يرون فيَّ شخصًا عتيقًا، تُضحِكُهم أفكاري، خاصةً ما يتعلقُ بالسياسة، إنهم حتى لا يصدقون وجود المصلحة الحكومية التي أعملُ بها، أو "مكتب الاتصال للجمهورية العربية المتحدة"؛ قال لي أحدُهم مرةً إنَّ الوحدةَ بين مصر وسوريا لم تستمر سوى ثلاث سنوات، وربما أقل، فلماذا تتركُ الدولةُ هذا المكتبَ مفتوحًا بعد كل هذه الأعوام؟! قامت دول وانهارت أخرى، اختفى زعماءُ وظهر آخرون، لم يعد الكوكب هو نفسه ومع هذا فأنا موجود، ماذا أفعل؟! الكارنيه ليس دليلاً على شيء إذ أن آخر تحديث له كان في ٢٣ يناير ١٩٦١، نظرَ إليَّ راكبٌ هازًا رأسَه بعدمِ تصديق مشيرًا إلى التاريخ ـ قائلاً: "من عصر الديناصورات!"، بالطبع لديه كل الحق في سخريته، لقد وصلتُ إلى محطتي التاسعةِ والخمسين، وأنا الموظفُ قبلَ الأخير، المفتشُ الأمين، وحافظُ السر، الذي يعيشُ في عالمٍ آخر لا يحياه الناس ولا يعرفونه.

كان لديَّ استعدادٌ للتواصل مع كلِ من أقابلهم على قلّتهم، وحالَ حاجزٌ ما بيني وبين ذلك الموظف الأخير، رغم أننا نُعدُ آخر سُلالة "مكتب الاتصال"، فارقُ السنِ بيننا ليس كبيرًا، ربما ست أو

سبع سنوات، أعرفه منذ بداياتنا، التحقتُ بمكتب الاتصال، واستمعت بحماسٍ كبيرٍ إلى التعليماتِ التي ينقلونها دائمًا على لسان الزعيم، لسبب ما غامضٌ أبقتْ الدولةُ على "مكتب الاتصال"، ولسنواتٍ طويلةٍ كنتُ أقولُ لنفسي إن الإله نفسَه نسي هذا المكتب، ومع هذا ظللتُ مخلصًا للعمل، وكان مدهشًا لي إخلاصُ الموظف الذي يبدو سقف حياته منخفضًا للغاية، فليس ثمةَ طموحٍ وظيفي، لن يعيّنُوه مفتشًا على المكاتب الخاوية، ولكن من يدري؟! لقد أبقتْ الحكومةُ على مكتبٍ ليس له وجودٌ بالنسبة للعالم، كانت تصرفُ مرتباتنا بشكلٍ عادي، بينما تولينا نحن داخليًا منحَ الدرجات الوظيفية وفقًا للائحة القديمة التي لم يجددها أحد أو يلغها، فلا بديل إلا تطبيق بُنودها، زملائي الأقدمُ مني صاروا مفتشين، بينما تمت ترقيتي إلى نائبٍ لرئيس القسم، ثم رئيسٌ للقسم، ثم مفتش، ليس هناك شيءٌ يمكن التفتيش عليه، وبالرغم من هذا كان كل شيء يسير بشكل جيد للغاية، كأن الزعيم المُعلّقةُ صورته في بهو "مكتب الاتصال" يراقبُ ويرى، وكأن لحظة الانقلاب في سوريا لم تحن بعد.

بدا مستقبلُنا غامضًا، بعد سنوات طويلة جدًا رفعنا عددًا كبيرًا من الشكاوى إلى مجلس الوزراء، حتى وافق رئيسُ الوزراء على الجلوس معنا، قيل لنا إننا لن نخسر شيئًا إذا ظللنا في أماكننا، لا خوفَ علينا من شيء، وطالما أن كلَ شيء مستمرٌ بما فيه زيادةُ المرتبات في مواعيدها فلا مشكلة، وقيل أيضًا إنَّ لجنةً تدرسُ بالفعل نقل تبعية المكتب إلى رئاسة الوزراء أو المخابرات العامة، أو وزارة الإرشاد، لم أحضر اللقاء طبعًا،

كنتُ أصغر من ذلك، والذين حضروه راحوا، بل أن رئيس الوزراء نفسه راح، ولا أحد يعرف ما انتهت إليه اللجنة.

لم أدونْ حرفًا واحدًا في دفتري منذ أن رقّاني رئيسُ المكتب قبل سنوات إلى مفتش، فليست هناك مكاتبات، ليس هناك عمل، ليس هناك صادرٌ أو وارد، ليست هناك جمهوريةٌ عربيةٌ متحدة من الأساس. أتذكرْ بشيءٍ من الأسى زملائي الأقدم وهم يتساقطون واحدًا وراء الآخر، غسّلناهم وحملنا نعوشهم، كنا نتفق على الالتقاء بالمكتب في موعد محدد والذهاب إلى عزاء أحد الزملاء، لم يذهب أحدنا منفردًا، كأننا نواجه فكرة الموت بصلابة الجماعة، لكن العدد صار يتناقصُ باطراد، وفكرتُ في أنه يتبقى على القيامة خطوتان، هما موتي وموت الموظف الوحيد بالمكتب، أحدنا سوف يحضر جنازة الآخر، وأحدنا لن يحضر جنازة أحد، لا أعرف أي الشرّين أهون على نفسي؟!

لم يعدْ لديّ من يصدقني بعد رحيل زوجتي، حينما شكوت إليها مرةَ تعامل الناس، طلبت مني اصطحابها في القطار، كنا نتبادلُ الحديثَ حتى القاهرة، وتنتظرني في محطة رمسيس حتى انتهائي من عملي وعودتي، كررتُ ذلك بقدر استطاعتها، ومع تقدمها في العمر لم تستطع مجاراتي، ففضلتْ البقاء في المنزل، تقضي الوقت في الطبخ، ورعاية نبتات صغيرة موضوعة في أصص أمام البيت، وتشمم رائحة ملابسي الداخلية.

في أحدِ العزاءات وبينما أفكر لاحظت أن آخر ثلاثة زملاء حضرتُ عزاءهم ماتوا حسب الترتيب الأبجدي، ثم تلفّتُ حولي وقلتُ

لنفسي -بينما أطالع وجوه التسعة المتبقين- لو أن "عزرائيل" سار حسب تلك الخطة سأكونُ الأخير لحسنِ الحظ، وتخيلتُ كثيرًا اللحظة التي سيموتُ فيها الموظفُ الأخير، وقررتُ جادًا الذهابَ إلى أهله في المنيرة لتقديم واجبَ العزاء، سأخبرهم بأنه كان موظفًا متفانيًا، وربما أكتبُ ورقةً في مدح خصاله، عليَّ أن أُعَوضَه شيئًا عن صمتي الطويل، الذي يشبه أوراقَ دفتري الصماء، قلَّ تفكيري في الموت كثيرًا مع ظهور رغدة، حسيَّتُها المُفرِطة، وكرمُها الزائد في عرضِ جسدها خفَّفَ من حضوره.

قبل ظهورها لم أكن كثيرَ الكلام مع الموظف، خاصةً بعد ترقيتي إلى منصب المفتش، حفاظًا على المسافةِ بيننا، المسافة التي ستجعله يشعر تجاهي بالرهبة، لو تجاذبتُ مَعَه أطرافَ الحديثِ، فربما يفكر في المزاح معي، ربما يمدُ يدَه إليَّ قائلاً: "كفَّك!"، ربما -يا للكارثة- يربتُ على كتفي، وربما يفكر مثلاً فجأة في سؤالي عن خصوصياتي، هل أمارسُ الجنسَ بانتظام؟! وربما يعرض عليَّ شيئًا ما لإطالة العملية الجنسية من الحبوب الجديدة، لن أتباسط أبدًا مع ذلك الموظف لأن ذلك بداية الإخلالِ بالوظيفة، وربما الوقار، وأنا لن أسمح أبدًا لأحد بأن يبدي ملاحظةً حول عملي، أو يقللُ من احترامي، يبدو لي تفكيري غريبًا في الواقع فليس هناك شخص يراقب عملي أصلاً.

في كثيرٍ من المرات وبينما أجلسُ مع الموظفِ في المكتب كان يطيب لي تذكُّر السلسلة الغذائية، كما رأيتها في كتاب العلوم بالابتدائية، وأتخيلُ أن هناك سلسلةً غذائية للموظفين، وبالتالي أقف في خيالاتي،

خلف الموظف فاتحًا فمي، أضحكُ كلما أتذكرُ ذلك، غير أنني لا أبتسمُ حتى مجرد الابتسام، أمام الموظف المرتعب، كل المعلوماتِ التي أعرفها عنه كانت من خلال ملفه في شؤون العاملين، بما فيها عنوانه، إنني أتذكرُهُ منذ سنواتٍ حينما كنا موظفيْن صغيريْن، لم نتعامل سويًا وقتها، ربما ألقينا التحية على بعضنا، مثل أي زميلين في أي مصلحة حكومية، كانت زوجتي تقولُ لي ـبعد أن أفضفض لها بكل هذه الأمورـ إنه لا داعي لتركِ كل هذه المساحة بيني وبين الموظف، فلم يعد بالمكتب غيرُنا، ثم إنه مهمّا دوّنتُ عنه من ملاحظات فلن يعاقبَه أحد، سألتني كذلك عن الجهة التي أرفعُ إليها تقاريري، فقلت لها صحيح أن رئيس الوزراء لم يرد عليّ أبدًا إلا أنه بالتأكيد يرى مكاتباتي، ويعلم يقينًا أن هناك مخلصين في هذا البلد، لا يحتاجون ولا ينتظرون وجود رقباء.

أحيانًا أتخيلُ اتصالاً، هاتفيًا منه، اتصالاً يمدح فيه أخلاقي، ويؤكد لي أن الدولة تراقب باهتمامٍ كبيرٍ ما أفعله، وأنه سيتم إطلاق اسمي على الشارع الذي يقع فيه المكتبُ تقديرًا لدوري، ومع كل تغييرٍ وزاري كنت أغيّرُ في أحلام اليقظة صورة المسؤول الجديد.

ربما عليَّ أن أخفف من توقعاتي لسلوك الموظف، إذ أنه ليس مطلوبًا منه سوى الحضور والانصراف في مواعيد صارمة، والتوقيع في الدفتر الخاص بذلك، الدفتر الموجود على مدخل الباب، توقفتْ الحكومةُ بالطبع منذ عام ٦١ عن توريدِ مثل تلك الدفاتر إلينا، الدفعاتُ الأولى التي أرسلتها كانت، لحسنِ الحظ، كافيةً تمامًا لكل هذه

السنوات، أنا على سبيل المثال، لم أستخدم دفتري حتى هذه اللحظة، صفحاتُه البيضاءُ تدُل على حسن سير الأمور بالمكتب، عليَّ الاعتراف بأن ذلك الموظف جيد؛ كان حتى في مرضه، يمرضُ بحساب، ولم يحدث أن تغيَّبَ فترةً طويلة، إنه لا يتجاوز -عمومًا- إجازاتِه العارضة والاعتيادية، وفي أثناء غيابه أحلُ بديلاً له، فلا بد أن يقوم أحدُنا بتنظيفِ المكتب؛ فلو تُرك فترةً فربما تهاجمُهُ الزواحفُ والعناكب، وربما يطْمُرُه التراب، كما طمرتُه ملفاتُ الحكومة، كان الموظفُ مندهشًا لأني أقطع كل هذه المسافةِ يوميًا من حدودِ بني سويف إلى رمسيس بالقطار، ومن رمسيس إلى عابدين حيث المكتبُ سيرًا، لمجرد أن أراه جالسًا في مكتبه، بالتأكيد كان مندهشًا، وإلا لماذا قررَ أن يسألني، ذات مرة، ألا أجدُ صعوبةً في الأمر؟! نفيتُ بهزةٍ خفيفةٍ من رأسي، سألني أيضًا، بينما يشير إلى صورة ناصر لماذا لا نغيرها؟! ألا ينبغي أن نعلق صورة الرئيسِ الجديد؟! وبعد سنينَ أخرى سألني السؤال مجددًا، وفي المرتينِ لم أُجب، أردتُ أن أتحدث، لكنني لم أعرف ما الذي يمكن أن يُقال في هذا الموقف، وانتابني الغضبُ لأن الموظفَ تمادى في كلامه معي، ثم شككتُ في أنه يريد توريطي.

هل يعرفُ أحدًا من جهةٍ حكوميةٍ ما؟! هل مر عليه مسؤولٌ هنا؟! نبهتُ عليه كثيرًا بعدم استقبالِ أحد، وكان يستجيب، أو على الأقلِ يقولُ إنه يستجيب، ثم إنني قلتُ لنفسي إنه بالتأكيدِ لا يقابل أحدًا، وقد بالغتُ في تركِ الغضبِ يغرقُني، فأنا موجودٌ هنا يوميًا، أصلُ بعده بدقائق وأظلُ معَه حتى نُغلقَ بابَ المكتب سويًا، اكتفيتُ فقط بالنظرِ

إليه دون أن أتركَ انطباعًا أو تعبيرًا محددًا يرتسمُ على وجهي، حاولتُ أن أبدو محايدًا إلى أقصى درجة، تاركًا له مهمة التصرف والإجابة عن نفسه بنفسه، وارتبك الموظفُ، وراح يعتذرُ بشكلٍ متواصلٍ عن الأمر، ووجدتُ أنه من الأفضل ألا أقاطع اعتذاراتِه، يجب أن يعتذر، فقد أخطأ ولو دون قصدٍ في الزعيم، وهو يعلم يقينًا أنه لولاه ما كان هذا المكتب، وما كان راتبه الذي يصل إليه حتى الآن في مواعيد محددة، قلتُ لنفسي إن العالَمَ بأسره لا يستطيع أن يحرمني أو يحرم هذا الموظف من ميراثِ الزعيم، كل ما هُنالك أنهم قادرونَ أن يغيروا مسمَّى راتبينا إلى معاش، سؤال الموظف هرطقة؛ فلو أعملَ عقلَهُ سيعرف أن هؤلاء الرؤساء لن يأتوا إلى هنا ليروا صورهم، ولهذا فلا داعي للتفكير في الأمر أصلاً، لمدة سنواتٍ بعد هذا الموقف كان الموظفُ ينتفضُ في مكانه رافعًا يده كأنه يحيِّي الزعيم بمجرد خطوي إلى داخل المكتب، ولم أحاول إثناءه عن الأمر أبدًا، انتفاضته كانت تُطيِّر شعراتٍ بيضاء من رأسه.

أبدأُ التفتيش من غرفةِ الأرشيف، وأجدُها في كل مرةٍ لامعةً ونظيفة، وكالعادة أشعرُ بضيق التنفس، دائمًا ما أشعرُ بضيق التنفس في هذه الغرفة بسبب المزيجِ المنفّر من الماء والتراب، مهما بلغتْ دقةُ الموظف فإنه لا يستطيعُ طرد جميع الأتربة، هناك جزءٌ خفيف يتبقى، جزء مشبع بالماء، وبجيوش السُعال التي تنتقل عبر الهواء إلى رئتيَّ، وفي كل المرات أغلقُ غرفة الأرشيف سريعًا، متنقلاً بين الأقسام المختلفة

ومكاتب الموظفين، مُمررًا إصبعي عشوائيًا على زجاج بعضها مقربًا إياها من عيني، بينما يحافظ الموظفُ على مسافة ثلاث خطوات بيننا.

حينما أتوقف كان يتوقف، وحينما أسعلْ يمْدْ يده عارضًا عليَّ منديله، كان كلُ شيء يبدو عاديًا، لا تفصيلة تتغير في يوم ما عن سابقه، يعلم الموظف جيدًا في اللحظةِ التي أتفحصه فيها أنني أراقب نظافتَه الشخصية ولم يعترض مرة، كان حاجباه الغزيران يهبطان قليلاً من مكانيهما ويغطيان عينيه كأنهما مظلتان، يمنحني الوقت الذي أريده لأقوم بعملية التفحص بل إنه يتظاهر -كما أتخيل- بتعديلِ وضع ملابسه ويرفع جزءًا يسيرًا من بنطلونه لأرى جوربَه، أجلس إلى مكتبٍ بالقرب منه وأبدأ في مطالعة دفتر الحضور والانصراف، وكان توقيعه باللون الأزرق وتوقيعي أسفله في خانة اليوم بالأحمر، أتفحص أحيانًا توقيعات الشهر تلو الشهر، كأنني أنتظر اكتشاف خطأٍ ما، لكني لا أجدُ شيئًا غريبًا، والخانة ذاتُ التوقيع الواحد كانت تخبرني عن غيابه أو غيابي.

حينما أنهض لأذهب إلى الحمام ينهض، وينتظرني أمام الباب، وفي جميع المرات لم أطالبه بتغيير ما يفعله، هناك شيء مريح في تصرفاته، عليَّ أن أعترف بذلك، لا أشعر بنوع من التعالي حيالَه، غير أن تصرفاتَه الخانعة تولِد فيَّ طاقةً كبيرة، وإحساسًا بالزهو لم أتخيل أنني أمتلكُ جزءًا ولو يسيرًا منه، أحيانًا أخبط يدي على المكتب فينتفض في مكانه بقوة، لدرجة أنني أشعر أنه سيتهشم مثل طبق صيني، أستطيع أن ألمَحه بطرف عيني حتى وهو يعود إلى استكانته، لدينا موعدان محددان

لشرب فنجاني قهوة، يذهبُ إلى المطبخ ويأتي بهما في موعديهما بالضبط، العاشرة صباحًا، والواحدة ظهرًا، في المنتصف ينتظرني بأوراقٍ مُسطَّرة في انتظار ما أمليه عليه، ونسير معًا حتى مكتب بريد العتبة لنبعث به إلى مجلس الوزراء.

لم أفعل شيئًا في المساء، بعد أن أخبرني الموظف عن حضور فتاة النظافة صباحًا لأول مرة، سوى السُعال ومحاولة عدم التقلب على السرير الذي يسعل معي، نمتُ واضعًا طرحة زوجتي فوق صدري مقربًا طرفها من أنفي، في اليوم التالي ظلتْ معي رائحتها في القطار، ولم يزاحمني أحدٌ لحسن الحظ، فاستمرت معي حتى رمسيس، اليوم هو المرة الأولى التي سأشاهد فيها الفتاة، لم أكن على علم باسمها وقتها، ولم أعرف لماذا كنت مهتمًا بمقابلتها إلى تلك الدرجة؟! قلت لنفسي إنها المرةُ الأولى التي سيخطو فيها غريبٌ إلى مقر المكتب منذ شهورٍ طويلة، على أي حال كان الأمر تسليتي في أثناء سيري من شارع عماد الدين متجهًا نحو ٢٦ يوليو، قفز إلى ذهني صياحُ أبي بحماسٍ قدَّرتُه جيدًا وقتها قائلاً إنّ الملك فاروق غادر الإسكندرية اليوم، مشيرًا إلى ٢٦ يوليو في النتيجةِ المُعلقة طالبًا أن أحفظَ هذا التاريخ جيدًا، لم يكن في حاجةٍ إلى ذلك، هذه التواريخُ حادةٌ وقاطعة وسميكة، لا يمكن نسيان شيء يتعلق بها، ثم تذكرت ذلك السُوري الذي جلس معي في مقهىً بنفس الشارع قائلاً إنَّ الانقلابَ كان يجب أن يحدث، لأنَّ المصريين فهموا الوحدةَ بشكل خاطئ، يعني الدولةُ السوريةُ دفعت رواتبَ للموظفين المصريين الذين لا يفعلون شيئًا حوالي خمسين مليون ليرة، "أكل وقلة مرعى" حاول أن

ينطقها كما نطقتُها قبلَ قليلٍ وأنا أحدثه عن كسل الموظفين المصريين، صِحتُ فيه ليس معنى قولي ذلك أن تُرددَه، وحاولتُ دفعه في صدره، غير أنه توقع الأمر، لأنه أمسكَ بيدي ودفعني فطرتُ مترًا إلى الخلف وأسقطتُ عددًا من الكراسي، فصل الناسُ بيننا، وتوعدته من خلف حواجزِ العظم واللحم بترحيله في أقربِ فرصة، ورد عليّ قائلاً وهو يضحك: "لو تقدر".

وصلتُ أخيرًا، فوجدتُ الموظفَ يقف أمام صورة الزعيم بينما تدور الفتاةُ بمنفضةٍ على الكراسي، كنت أراها من ظهرها، وانتبهتْ لذلك بالقطع، فقد أحدثَ الموظف جلبتَه المعتادة، حاول التفخيمَ في شخصي بابتكار ألقاب، أو بالنفخ في لقبي، وهو يقدمُها إليَّ، بينما كنتُ مأخوذًا بإطلالتها التي تشبهُ إطلالة زوجتي منذ ثلاثين عامًا، حينما قابلتُها للمرة الأولى في المكتب، جاءت مع والدتها قائلةً لي إنها تريدُ أن تسافرَ إلى سوريا، وأقنعتُها فورًا بالسفر معي في القطار إلى بني سويف، كانت الفتاةُ ترتدي فستانًا ناعمًا يسيلُ مع تموجاتها كما تميل المياه مع تموجاتِ الأواني المستطرِقة، كانت جميلةً ومشرقة، تسقط عليها إضاءةُ الشمس الهادئة من الشباك وتجعل جمالَها جليًا، شعرتُ بأن الدنيا أعادت بعثَ زوجتي من جديد، حاولتُ السيطرةَ على نظراتي وانفعالاتي، لكن يبدو أنها التقطتْها، وابتسمتْ، أردتُ الصياحَ فيها كما أفعلُ مع الموظفِ أحيانًا، أردتُ أن أقول لها بوضوحٍ إنَّه ستكون هناك مسافةٌ بيننا، وقلت لنفسي ما الفكرة من أن يخبر شخص شخصًا آخر في المقابلة الأولى بينهما بأن يظل على مسافة بعيدة عنه؟! كانت هذيانًا

وقتيًا، ولهذا صَمتُ تمامًا، مفضلاً أن أتركَ فيض الإشارات يتحرك مني باتجاهها، كل جزءٍ في جسدي أرسل إشارة، وفكرت في أنّ وقوف الموظف بيننا هكذا قد يعوقُ الإشاراتِ عن الوصول، أو قد تصل إليه هو فتصبح هناك مشكلةً حقيقية، وهكذا أمرتُه بالجلوس لكتابة رسالة إلى رئيس الوزراء، فسألني باندهاش: "أكتبها أنا؟!"، وأومأتُ برأسي قائلاً إنني سأراجُعها فيما بعد، وسيطرت عليَّ فكرةٌ واحدة، أنني أريد أن أشَمَّها، كأنني متأكدٌ من أنني سأشمُ رائحةَ زوجتي، لقد ذهبتْ إلى السماء وعادتْ شابةً ولأن مصيرها مرتبطٌ بي كان لا بد أن تظهر في المكتب مجددًا، تحركت ذرةُ امتنانٍ داخلي تجاه الموظف الذي قال: (اسمُها رغدة) وللحظةٍ شعرتُ باستغرابٍ ممتزجٍ بقليلٍ من الضيق كأنني توقعتُ أن يكون "رجاء . حسنٌ، سأعتبرُ أنَّ "رجَاء" عادتْ من العالم الآخر باسمٍ جديد.

لم أنمْ تلك الليلةِ جيدًا، ولا الليالي التالية، وكانت الرغبةُ تُعميني، كانت الرغبة أقوى من السعال، ومن صرير السرير، ومن الوحدة، ومن الهواجس التي تتحرك بين عَتمةٍ وإضاءةٍ تُحاولان الانتصار في معركةِ وجود بالغرفة، ومن خيالات القطارات على الحائط وهي تشقُ الهواء على بُعد أمتارٍ مطلقةً صيحاتِها المنذرة، أدركتْ رغدة أنني أرغب في اجتياحِها منذ اللحظة الأولى، كما أن الإشارة وصلت أيضًا إلى الموظف، الذي لاحظ أنني أحضرُ يومي الأحد والأربعاء حيث تأتي رغدة قبلَه بكثير، وصار يتعمد التأخرَ قليلاً معتذرًا بأدبه البالغ عن الأمر وأنا أقبلُ اعتذاره، ومع هذا فكرتُ للمرة الأولى، في تلويثِ

الدفتر أخيرًا، لم يكن ثلاثتُنا بحاجةٍ كبيرة إلى كلام، ولم يكن جسدي في حاجةٍ إلى إنعاش، وفكرتُ في أنّ تلك التجربة لن تفشل، فليس هناك في الأفُقِ ما يُشير إلى أنّ الموظف ينوي التمردَ بشكلٍ ما، بل إنني فكرتُ أنّه أحضر هذه الفتاةَ خصيصًا لتسليتي بعد وفاةِ زوجتي، وإلا لماذا قرر إحضارَها في هذا التوقيت؟!

بدا السؤالُ منطقيًا أحيانًا وغريبًا جدًا أحيانًا. كان الذنبُ يحاصرني مساءً، وبدأتُ أتعمَّدُ النوم دون أن أشمَّ شيئًا من ملابس زوجتي، لو كانت تطلِع عليَّ لربما أدركتْ أن انجذابي إلى رغدة سببُه أنها قريبةُ الشبه بها، ولربما أدركت أن ضِيقي سببُه أنها لم تُبعث بنفس اسمها، لو كان اسمُها "رجاء" لربما صدقتْ زوجتي أن الأمرَ ليس أسطورةً، ولم يحدث بصدفةٍ غريبة، رأيتُ نفسي في خيالاتي وأنا أنصهرُ مع رغدة برغبةٍ لم أشعر بها منذ ثلاثين عامًا، وحاصرني القلق، غير أنني بددتُ كل مشاعري باستحضارِ الموظف.

كنت أتخذ القرارَ على مهل، ـوبالفعل اتخذتهـ طلبتُ من رغدة، بصوتٍ خفيض ـبينما أنظرُ إلى رأسِ الموظف المنكّسِ في الأوراق أمامهـ الحضورَ صباحَ اليوم التالي في السادسة، ابتسمتْ، وغادرتْ، وفي اليوم التالي جاءتْ في الموعد، وبمجردِ أن أغلقتُ البابَ قفزتْ نحوي، وكان مدهشًا ذلك التماسكُ العجيب الذي وجدتُه في نفسي كأن هناك من شحنني بطاقةٍ خفية، كانت دقائق من العظمة شعرتُ فيها أن رئتَي تخُصان شخصًا آخر، فلم تصدرا صوتًا، أو تبعثا عبر عظام القفص الصدري ألًا، فجأةً صرتُ أشعر بأن الموظفين عادوا، أطيافُهم مرت

عبر جسَدِها العاري الممددِ على السجادة، وجسدي الذي يترنحُ من فرطِ الدهشة، حاولتُ ارتداء ملابسي بسرعة، بينما أشعر بخوفٍ غامض، ربما من حضور الموظفِ فجأة، رغم أنني كنت أستبعد هذا حتى لحظةٍ مضت، ربما من زوجتي التي لم تفارقني رائحتُها، وكنت أشمُ أنفاسَها في أنفاسِ رغدة، ربما من رغدة نفسِها التي أخبرتني منذ لحظةٍ أنها نامت مع معظم الرجال الذين عرفتهم، ثم شعرت فجأةً بالضيق لأنني تذكرت صورةَ الزعيمْ في هذه اللحظة فقط، كان يمكننا أن ننقل السجادة إلى غرفةٍ أخرى أو حتى إلى المطبخ، أو كان بمقدورنا نقله هو شخصيًا إلى أي ركن حتى ننتهي، لم أكن قادرًا على النظرِ إليه في تلك اللحظة، كنتُ خائفًا ومرتبكًا، ورغدة تناديني بدلالٍ مزيلةً كلَ الفوارق كمن تعرفُني منذ ثلاثينَ سنة، أو كمَن ستعرفُني لثلاثين سنةٍ أخرى.

"معزة" جوركي

أمي وجدتْ "معزةً" خلف الباب الزجاجي لمدخل عمارتنا، كان البابُ مواربًا تجتاحُه ريحٌ قاسيةٌ ورأتْ "المعزةَ" ترتجف، أو أرادتْ أن تراها ترتجف، جلستْ بجوارِها وربتتْ على رأسها، ومررتْ يدَها على ظهرها، ثم رأت دمعة في عينِها اليسرى، سقطتْ على الأرض مع أول رفةٍ لها، الهواءُ البارد محمَّلٌ بنشارة خشب يضعُها البوابُ أمام المدخل بعد مسح السلالم مساءَ الخميس، ولا شكَ أن شيئًا صغيرًا دخلَ في تلك العين، ومع هذا كانت أمي مقتنعةً بأنَّ "المعزة" تبكي، قالت لي إنَّها وجدتَها تبكي، لم تحتملْ أن تتركها هكذا، حاولتْ إيقاظ البواب، لكنه لم يستيقظ حتى بعد كثيرٍ من الطرقات على الباب الصاج الأخضر للجراج، الذي حوَّلَه إلى مسكنٍ له ولأسرتِه، تلفتتْ حولَها في الشارع المُعتم، ولم ترَ إلا صفوف الأشجار التي تميلُ مع الريح باتجاهها، لم يكن أحدٌ ينظر من شباكٍ أو بلكونة، ولم تكن بقية القطيع تسير على مقربة كما توقعتْ، لا ماعز، لا أغنام، لا كلاب، لا راعي، لا شيء سوى الصمت الذي يستَبدُ بالمكان حولها، من شارع السودان إلى نهاية شارع محمود عزمي.

فكرتْ في العودة إلى البَقّال في "مِيتْ عُقْبَة" لتخبرَه ثم تراجعت، ربما كفَّ الراعي عن البحث عنها بعد إدراكِه أنّه ضيَّعَها، ربما مرَّ من هنا ولم يلحظ وجودها خلف الباب الزجاجي للمدخل الذي يختفي خلف شجرتي "بونسيانا" متقابلتَين ومتماثلتَين، "المعزةُ" تبكي، هذا ما تعرفُه الآن، وما تشعرُ به، الأمر لا يحتاج إلى تفكيرٍ كثير، لم يكن القرارُ كبيرًا بالنسبة لها، هي تعرفُ أنني لا أعترضُ على أي شيءٍ تفعله، فمهما طالَ وجودُها هي وأبي سيعودان إلى الصَعيد، ولا داعي لإجبارهما على التفكير في تصرفاتهما.

بشكلٍ ما وصلتْ بـ"المعزة" إلى باب الشقة في الطابق الثالث، ورنتْ الجرسَ كما اعتادتْ رنةً خفيفة لتمنحنا جميعًا فرصةً لتعديلِ أوضاعِنا قبل أن تفتحَ الباب بنفسِها، كنتُ قريبًا من الباب، ولم تدعْ لي الفرصة أو لأبِي وزوجتي اللذَينِ ظهرا تباعًا لإبداءِ الدهشة، لأنها حكتْ القصةَ بسرعة، استفاضت في وصف الدموع التي رأتها تنهمرُ من عيني المعزة"، أبي لم يرغبْ في التحدث؛ قال إنه مريضٌ ولا يريدُ الجدال حول أحد تصرفاتِها المجنونة، بينما نظرتْ إليَّ زوجتي متسائلةً عن المكان الذي سنضع فيه "المعزة"، لم تكن البلكونة أنسبَ مكانٍ بالقطع، لو وضعناها فيها كأننا نعيدُها إلى الشارعِ الباردِ، بعد قليلٍ من التفكير اقترحتْ أمي تركها في المكتبة، ظلتْ تمررُ يدَها على جسدِها، وبين شعرِها، متطلعةً إلى عينيها.

جاءتْ أمي بعد قليل إلى المطبخ حيث أقفُ منتظرًا غليان الماء في البراد، وضعتْ الموبايل في "الميكرويف"، وألقتْ نظرةً على أدراج الثلاجة، فتحتُ "الميكرويف" لأتأكد أنّه ليس ساخنًا.

لم أصدق ما أخبرتني به زوجتي في البداية، أمي تضعُ الموبايل في "الميكرويف" أو في أدراج مكتبي، أو على الطاولة الصغيرة بالبلكونة، لأنها تشك في أن جارتها اخترقت الموبايل وتتنصَّت عليها، فكرتُ في تلك السيدة البدينة التي لم أرَها منذ عشرين عامًا تقريبًا، والتي بالكاد تستطيع تهجئة حروف اسمها، وقد تحولتْ إلى قرصانٍ رقمي، لطالما حذرتُ أمي، أحدُنا قد يُشغِّل "الميكرويف" لتسخين رغيف، كما اعتدنا أن نفعل، دون أن ينتبه للموبايل، لكنها لا تلقي بالاً، ترى في أحلام يقظتها الجارةَ تقضي أغلبَ يومِها في الاستماع إليها، ماذا تقولُ لأبي، وماذا يقولُ لها، وفي ماذا يتجادلان يوميًا، سواءٌ هنا في شقتنا أو في شقتهما بالصَعيد، ماذا يدورُ بينهما وبين إخوتي، تتعمدُ الجارةُ الوقوف أمام باب شقتها، تسلِم عليها، وتسألُها عن أبي وإخوتي، ثم تتعمدُ نقل الحديث فجأةً ليصبح بينها وبين ابنتها، تسألُها عن شيءٍ ما، تستخدمُ بعض الكلمات التي سمعتْهَا على لسان أمي في أثناء تنصتِها عليها، قلتُ لها ذلك عملُ مخابرات، ولا أعتقد أن المخابرات تحتاج منك شيئًا، ثم أضحك، إلا إذا كنتِ تخبئين عنا شيئًا، لكنها لا تضحك، إذ أنني كما تقول لن أصدقها أبدًا، ولهذا على كل منَّا أن يحتفظَ برأيه لنفسِه، تنفعلُ حينما أفتحُ الموضوع معها، لكنها بمرور الوقت أقنعتْ نفسَها بالابتسام حينما آتي على ذكره محاولاً أن أبدو كما

لو أنني أمازحها، وأحيانًا تأتي إلى مكتبي حيث أسهرُ لوقت متأخرٍ، وتضعُ الموبايل فوقه. وتعطيني ظهرها فأقولُ لها: إنها تُريد التخلصَ من الجواسيسِ على حسابي. كانت تُصدق وتعودُ لحملِ الموبايل، ولا أحاولُ إثناءها إذ إنَّه سيرنُ بشكلٍ مؤكد بعد قليل. أبي يُريدها في غرفته تقريبًا كل خمس دقائق. ويستدعيها بالرنات. ينطلقُ صوت الشيخ مشاري العفاسي فتتابني رغبةٌ في خبطِ رأسي بالمكتب، الصالةُ صارت ستترالاً، تضع فيه موبايلاتها الأخرى. ثلاثة موبايلات آمنة، في اعتقادها أنه ليس هناك قلقٌ منها. فهي بدون إنترنت، أمي بالنسبة لي علامةٌ على التحولِ الذي أصابَ كوكبنا. أتذكر بكل الدهشة حين دخل التليفون الأرضيُ شقتنا بالصعيدِ منذ ثلاثينَ عامًا أنها ظلت أكثر من أسبوعٍ تخشى الاقتراب منه. وفي المرة الأولى التي تمسكُ فيها بالسماعة احمرَ وجهها كما لو أنها رأت شخصًا عاريًا يتراقصُ أمامها، يترك أبي أربعة موبايلاتٍ أخرى على نفس الطاولة في الصالة، وهكذا ترنُ ثلاثة أو أربعة موبايلاتٍ في وقتٍ واحد أحيانًا، فأشعرُ أنني في غابةٍ أصوات. وأحيانًا تصدرُ النغمةُ من الميكروويف، أو من درج مَكتبي، كان أمرًا جنونيًا. خاصةً أنها لا ترد سريعًا. وتظلُ تُضيِّق عينيها، متطلعةً إلى الشاشات. الواحدة تلو الأخرى. قبل أن يقعَ اختيارُها على سعيد الحظ الذي سترد عليه. ثم تعود إلى الاتصال بالباقين بعد ذلك سواءَ من اتصلوا بها أو بأبي. ثم تقدمُ له تقريرًا بعد ذلك بكل المكالمات.

نسيتُ أمي الموبايل الأسود، الذي تؤمن أنه مُراقبٌ، على كرسي "الفُوتيه" القريب من باب الشقة. انشغلتْ بـ"المعزة" التي أطلقت للمرة

الأولى ثغاءً مُتقطعًا، وألقتْ على السجادة المُلونة ما أحضرتْهُ من المطبخ، بقدونس وكزبرة خضراء وذيول جزرٍ أحمر وخس وكرّات، انتظرتْ قليلاً غير أن المعزة لم تقربْ الطعام.

عبَّرت أمي عن حُزنها؛ فقالت إنّ المعزة ربما تفكرُ في أمّها أو أبيها أو أخواتها، حزنُها يمنعُها من الأكل، نظرتُ إليها محاولاً كتمَ ضحكاتي وتمنيتُ أن يرنّ التليفونُ الأسود، لكنَّ الرنينَ انطلق من تليفونٍ آخر على الطاولةِ القريبة؛ فنهضت لترد، ثم ذكّرَها الرنينُ على ما يبدو بالموبايل الأسود فعادتْ الخطوتين أو الثلاث التي قطعتها باتجاه الطاولة إلى كرسي "الفوتيه" وبدا ذعرٌ على ملامحها، وهرولت باتجاه المطبخ، وأنا في إثْرِها، وسمعتُها تُقرِّب فمَّها من الموبايل المغلق موجهةً كلامَها إلى الجارة، نصحتها بالكفِ عن الأكلِ لأن جسدَها أصبح مُقسَّمًا كإطاراتِ السيارات التي يعملُ زوجُها في إصلاحها، ثم ضحكتْ قائلةً "اسمك ميشلان.. صح؟!".

ربما تتخيلُ أمي الجارةَ الآن وهي تُلقي شيئًا بغضب، أو وجهها ينتفخُ كبالون، ربما تتخيلُها كذلك وهي تفكرُ في الكشفِ عن نفسها، لطالما تمنَّت أن تشتمها الجارةُ بأقذعِ الألفاظ لتنكشف على حقيقتها.

ألقت الموبايل في الميكرويف وأغلقت بابه فسبقتُها إلى "المعزة" التي لم تقربْ الطعام، أحضرت أمي "حَلَّةً" بلاستيكيةً صغيرة مملوءةً بالماء، وبدأت تُصفِّر كما كانت تفعل صغيرةً مع حمارِ أبيها، ولكن "المعزة" لم تحرك رأسها باتجاه الماء، وظلت تُطلق ثغاءها المتقطع، وشردت أمي

كالعادة، كانت تقضي وقتًا طويلاً في الشرود، محلقةً في عوالمٍ لا نعلمُ عنها شيئًا، لا أعرفُ -بينما أتطلع إليها من مكاني- أين عقلُها الآن، هل تفكرُ في طريقةٍ تجبر بها "المعزة" على الأكل والشرب؟! هل تتذكرُ الماعز التي كان جدي يربيها في بيتهم بالقرية قبل استقرارهم بمدينة نجع حمادي القريبة؟! أم أنَّها سافرتْ لتخوض معركةً جديدة مع جارتها؟! ظهر أبي وقال إن "المعزة" لن تأكلَ أو تشرب إلا لو كففنا عن النظرِ إليها، مراقبتُنا لها هي السبب.

في الصباح سمعتُ صوت جلبة، وتحركتُ من الغرفة إلى الصالة، ووجدتُ أمي كما لو أنَّها تلومُ "المعزة" على شيءٍ ما، بينما ارتسم تعبيرٌ غاضبٌ على وجه زوجتي، وقبل أن أستفسرَ منهما لمحتُ تلك الفوضي التي اجتاحَتْ غرفةَ مكتبي، الكارثةُ أفصحت عن نفسها رويدًا رويدًا أمامي، في البداية لمحتُ بقايا كتب، مجردُ كعوبٍ تلتصقُ بها صفحاتٌ أو أشباهُ صفحات، ثم انتبهتُ إلى أنَّ كثيرًا من كتب الرفِ الأول للمكتبة -الرفِ القريب من الأرض- اختفتْ، وبعضُها لم يعد في وضعه العادي، كانت مبعثرةً، وهناك آثارُ عضاتٍ، خاصةً على الأغلفة، ظهرتْ آثارُ أسنان "المعزة" جليةً عليها، أسنانُها اخترقتْ كل الأغلفة باستثناء غلاف معجم "لاروس"، حاولتُ قمعَ نقطة غضب تكبر بداخلي ولم أستطع، بدأت في إحصاء الخسائر، التهمت "المعزة" كل أعمال "جوركي"، وكثيرًا من أعمال دستويفسكي وتولستوي وتشيخوف، كأنَّ "المعزة" قررتْ محو روسيا من مكتبتي، كان هناك أيضًا هوجو وبلزاك وبودلير وأوسكار وايلد وجيمس جويس وجون باتلر.

هتفتُ غاضبًا أن علينا إلقاءهَا في الشارع حالاً، وانتبهتُ إلى جزءٍ صغيرٍ من أحد الأغلفةِ تحت قوائمِها، يظهرُ عليه بوضوح اسم "مكسيم جوركي"، أمالتْ رأسها في هذه اللحظة وبدأت التهامه، قالت أمي علينا ربطُها بحبلٍ قصير في الصالة بحيث تكون حركتها محدودة، رفضتُ بشكلٍ قاطع، متجاهلاً النظرَ إلى وجهها، واقترحتْ زوجتي أن نسلمَّها للبواب ليتصرف فيها، لكن أمي ضحكت فجأةً، نظرنا إليها ووجدناها تمسكُ بالموبايل الأسود وزِرَّين ساقطينِ منه، تركت الموبايل على كرسي "الفوتيه" وأخرجَتْه بالكادِ من فم "المعزة"، والآن تضحك لأنها تستعيدُ تخيُلَها لـ"المعزة" وهي تأكلُ أذن جارتها. في اعتقادي ليست هناك فائدة، لن يغير شيءٌ من قناعتها، أمي تؤمنُ بأن هناك من يرسلون لينكات اختراق على "واتسآب"، تعطيني الموبايل أحيانًا لأقرأ لها جملةً ما أرسلها أحدُ أقاربنا على "واتسآب"، وبعد انتهائي تقول إنها ستمتنع تمامًا عن فتح اللينكات حتى لو أرسلها إليها أحدُ الملائكة، كانتْ مجردُ عباراتٍ معايدة أو نصائح دينية فلماذا تتحدث عن لينكات؟!

قررتُ حملَ "المعزة" إلى الشارع، فقالتْ إنها هي من وجدتَها ولن تتركَها لا للبواب ولا لي، ستنزل إلى الشارع بحثًا عن صاحبِها، ربطنا رقبتَها بدوبارةٍ قصيرة، وحرصنا على ترك الأُنشوطةِ واسعة، وبمجرد هبوطنا إلى الشارع أنزلتُ "المعزة"، خطرت لي فكرةٌ حينما رأيت بائعَ الخضار يقف كالعادة على ناصية الشارع، حكيت له بشكلٍ سريع ما جرى واستأذنته في إرسال ابنه معنا بميكروفونه ليخبر الناس أنها بحوزتنا، ظهر أيضًا البوابُ، ومع وجود زوجتي وأبي تحولنا إلى فوج.

حينما بدأنا نتحركُ ناحية شارع السودان قالت أمي: إنها شاهدتْ راعيًا يسير منذ مدةٍ في اتجاه "مِيت عُقْبَة"، فليس من الطبيعي أن يسيرَ في اتجاه شارعٍ يكتظُ بالسيارات، كان كلامُها مقنعًا؛ فغيرنا وُجهَتنا، كانت تتصرف بمنطق صاحبة "المعزة" وربما أمِها، كانت تبطئ من خطواتها تاركةً إياها تتشمم أو تأكل شيئًا في الأرض، سرنا خلفها محافظين على خطواتٍ تفصلُنا عنهما، كان ابن البائع يتأخر عنا جميعًا وهو ينادي صاحب "المعزة" المجهول، أشارتْ أمي إلى مدرسة "يوسف السباعي"، وقالت إننا سنسير بحذاء سورها الخلفي حتى لا نعود إلى شارع السودان.

أرادتْ التعمق في "مِيت عُقْبَة"، وشعرت باندهاشٍ لأنها أصبحت خبيرةً في وقت قصيرٍ بهذا المكان، قادتنا من شارعٍ إلى شارع، ومن حارةٍ إلى أخرى بسهولة كأنها قضتْ طفولتَها هنا، ورأيتُ بائعَ خبزٍ في فرنٍ بلدي يُشير لها من بعيد ويسألُها لماذا لم تظهر منذ أيام؟! فقالت وهي تُشير إلى "المعزة" ـالتي كانت تقاوم شَدَّة الدوبارة محاولةً الوصولَ إلى كومِ"زبالة" قبل شارع وادي النيلـ إنها ستأتي إليه بعد أن تُسلِم هذه الأمانة، شارعُ وادي النيل هو الحدُ الفاصلُ بين ميت عقبة والمهندسين من الجنوب، ولهذا قررنا العودة مرة أخرى من نفس الشوارع المتشابكة والمزدحمة، لكنَّ أمي أشارت إلى شارعٍ لم نسلكه في رحلتنا، وهكذا تغيرتْ بوصلتنا، كان ابنُ بائع الخضار ـالصبي البدينـ يلهث، وصوتُ لهاثِه يختلطُ بكلماته في الميكرفون، بينما يسألُ البوابُ البائعينَ حولنا: هل يعرفون راعيًا مرَّ من هنا؟! وانتبهتُ في هذه اللحظة إلى أن زوجتي وأبي يتبادلان الحديثَ على بُعد أمتار خلفنا، غير مكترثيْن بنا.

نادى علينا جزارٌ وعرض مبلغًا مغريًا لنتركها، وردَّت أمي بجملةٍ قصيرةٍ عن الحساب العسير يوم القيامة، وتراءى لي في هذه اللحظة، أنني الوحيدُ الذي يملك حق التفكير في القيامة، وأردتُ إنهاء الأمر بأي شكل.

أمي ليس لديها مانعٌ من الإعلان عن نفسها والمشاركةِ في عرضٍ يشاهده حيٌّ كاملٌ في العاصمة، عرضٌ عن معزةٍ تائهة وسكانٌ من المهندسين قادتهم أقدامُهم إلى مجاهل ميت عقبة للبحث عن صاحبها، ومع هذا لديها مشكلةٌ ضخمةٌ أن تعرف جارتها في الصعيدِ شيئًا عن الأمر، همستُ في أذني ونحن نهبط السلالم أنها تركت الموبايل في "الميكروويف" حتى لا تعرف جارتُها شيئًا عما سيفعلونه. الموبايل ينقصه زران والجارةُ لن تسمع هكذا قلتُ لكنها أشارتْ لي لأخفض صوتي، متطلعةً بطرف عينها إلى أبي الذي يرفعُ يده بإشارة الجنون كلما تحدثتُ في الأمر.

بكل صدقٍ لم أفهم إلى الآن طبيعة المشكلة بينها وبين جارتها، والأهمُ أنني لا أعرفُ كيف وصلت فكرةُ "الجارة القرصان" إلى رأسها، أمي التي لا تعرف من الإنترنت سوى الضغط على "اللينكات" التي تصلها، والتي تحتاج أحدنا ليكتب أو ليقرأ لها رسائلها، كيف فكرتْ أن سيدةً بدينةً، تأكلُ قطع اللحم شبه نيئة وهي على الموقد، تستطيعُ اختراق موبايل؟! لماذا لم تُغيري الموبايل أو شريحة الخط لتريحي نفسَكِ من التفكير؟! أردتُ أن أسألها، لكنَّها قالت إن جارتَها قادرةٌ على كل شيء، وابنتُها تساعدُها، وهي لن تسلم من أذاهما أبدًا، وعليها أن

تحتاط، كما أنها لا تريد أن تعرف الجارة شيئًا عني وعن زوجتي. ولا عن مرض أبي، لا ينبغي لغريبٍ أن يطّلعَ على أسرارنا، انتبهتُ الآن إلى شخصٍ يرتدي "جلابية" يتوقفُ أمامنا فجأةً وهو يلهث قائلاً بين أنفاسِه المتقطعة: "أنا صاحبُ المعزة"، جاء جريًا حينما أبلغَهُ البعض في شارعٍ قريب بأمرنا، كان في ملامِحِه شيءٌ صادق جعلنا نعيدها إليه بدون محاولة التثبت من أنه ليس نصابًا، وجاء أبي في هذه اللحظة فاردًا أصابعَ كفِه اليمنى الخمسة في وجه أمي صائحًا: "كفاية". لم تكن تفكر في سخريته ورأيت عينيها مُعلقّتَين بـ"المعزة" التي تقاومُ صاحبها وترفضُ التحرك، ثم مالت هامسةً في أذني أنها تشعرُ بالرعب. وتفكر في أنَّ جارتَها قد ترسلُ لها على تليفونها بعد قليلٍ لتسألها ماذا فعلنا بـ"المعزة" في الشارع.

أعلنت "المعزة" الاستسلام في هذه اللحظة وسارت أمام صاحبها، قبل أن تنفجر مؤخرتُها بدفقاتٍ متتاليةٍ من البعر، كانت الكراتُ السوداء تصنع خطًا شبه مستقيم على الأرض. وأشعرُ بالغيظ من هذا المصير المدهش لجوركي وبقية عائلته، المصير الذي لم يقف عند ذلك، إذ أن الأقدام المتلاحقة للمارة بدأت في دهسهم الآن، وأصحابُها يصبون اللعنات على "المعزة" وعلينا.

العرض الأخير

بالتأكيد لا تعرف سيمون ما يدور في رأسي، بالتأكيد لا تعرفُ أنّها بطلة عرض إجباري، وربما تصير نجمة مثلي، قالت وهي تشير إلى التلفزيون خلفي أن أعداد الناس تزداد في الميدان، لكنني لم أُلقِ بالاً لكلامها، دفعتها باتجاه الشباك، وعيناي معلقتان بوشمٍ يغطي جزءًا من صدرها، ديكٌ مطبوعٌ بين نهديها، يقف في الفراغ وعُرْفُه الضخم يعلو فمًا مفتوحًا، تخيلتُ للحظة أنه يصيح وأنني أسمع صياحه، ثم أدركت أنه قادم من شرفةِ الجيران.

تحركت سيمون بخفةٍ تقارب خفة الهواء الذي يحرك الستارة الزيتية السميكة، ولم تنتبه بالطبع إلى أن هناك جمهورًا ينتظر ظهور الممثلين في تلك اللحظة، ظهورَنا نحن، ساعدتُها على خلع ملابسها، بكثيرٍ من العجلة، حتى كدنا نسقط حينما وضعتُ قدمي بين وركيها، وبالتحديد عند كيلوتها المعلَّق في منتصفِ ساقيها، كانت ترتديه ولا ترتديه، حيث يقف في منتصف المسافة في طريقه إلى الأرض، ودفعتُه بقدمي ليصل إلى وجهته سريعًا، ضحكتْ لكنني لم أضحك، كنت مشغولاً بعدم إفلاتها

من يدي، وفي نفس الوقت بالإمساك بأطراف الستارة بيدي الأخرى وإزاحتها إلى الجانب، كنا عاريين في هذه اللحظة، في مواجهة الجمهور، الذي أطلق صافراته سريعًا.

انتبهت سيمون فورًا، وتوقفتْ ونظرتْ من الشباك ثم إليَّ باندهاش، لكنَّها مع هذا، لم تحاولْ مداراة شيءٍ من جسدها، أشرتُ إلى السجن أسفلنا، وقلت إن المساجين يشاهدوننا الآن، لم تكن في حاجةٍ إلى كلماتي، واقتربتْ أكثر من الشباك حتى التصقت به، ورأيتُ نهديها يستريحان على الخشبة التي تشكل أرضية الشباك، بينما حلمتاها تبدوان كرصاصتين، جُنَّ جُنونُ المساجين وتقافزوا مطلقينَ كثيرًا من الإشارات، لإعادتنا إلى العرض، وشاركهم الأمناءُ والعساكرُ النظرَ من أسطح المباني، كان على المساجين أن يمدوا أنظارهم أربعة طوابق فيما يُقلّص الجلادون مستوى الرؤية إلى طابقين فقط، نظرت سيمون إليَّ مجددًا ضاحكةً وقائلة: "طيب كنت تشاركني فكرتك!" فهززت كتفي، انتظرت مني حكاية، لكنني انشغلت في هذه اللحظة بالصمت الذي خيم على السجن في الأسفل، وتنكيس المساجين رؤوسهم في الأرض وعودتهم إلى تعليق ملابسهم على حبال طويلة ممدودة بين حوائط المباني، وهرولة الأمناء والعساكر إلى الأسفل.

قلتُ لنفسي إنَّ المأمورَ ظهر بكل تأكيد رغم أنه لم يكن حتى هذه اللحظة قد دخل في محيط رؤيتي، خمنتُ مكانَه من الجهة التي ينظر إليها الأمناء والعساكر وبعض الضباط الذين اصطفوا بسرعة شديدة، ظهر جزءٌ من ظِله بحذاء المبنى الأيمن القريب من كورنيش النيل، ثم اختفى

فهرول الأمناءُ والعساكرُ باتجاه المساجين ونزلوا بهراواتهم على الأجساد والرؤوس.

بدأ الأمر بدون تخطيط، كنت أتحرك في الصالة مع إحدى الفتيات، في بداية سكني بهذه الشقة منذ عامين، تكأكأتْ الفتاةُ أمامي محاولةَ إيقاف اندفاعي، وطيّر الهواءُ الستارة، فظهرنا عاريين للعالم، وربما شبحين أسودين تحت إضاءة القمر الضخم الذي يحرس المعادي في تلك الليلة، أطلق المساجينْ صافراتِهم، وصفقوا طويلاً، والفتاة المرتعبةْ جلست بشكلٍ خاطف على الأرض، لم أحتج إلا إلى ثوانٍ لأحسم ترددي، ظهور هذا الجمهورِ حماسيٌ للغاية، وشحنني بطاقةٍ ضخمة، فأعدتْ الفتاة لتقف أمام الشباك بالقوة، قاومت يديَّ اللتين تطبقان على كتفيها، ثم على نهديها، حاولت الإفلات والهرولة إلى الركن البعيد من الصالة، غير أن يديّ كانتا تتركان نهدَيها وتطبقان مرةً أخرى على كتفيها، وتعيدانها إليّ حيث أقف، بينما أغوصُ فيها من الخلف، وأرفعُها قليلاً باتجاه سماء الغرفة، ننزلُ إلى الأرض ونصعد إلى السقف، وهكذا كنتْ بارعًا في تربية الفتيات وفي تشويقِ الجمهور.

كنت حريصًا على مفاجأتهم كل مرة، فأختارُ مواعيدَ مختلفة، وشبابيك مختلفة، ينبغي أن يظلوا في حالةِ ترقبٍ دائم، ينبغي أن يظلَّ العرضْ محتملاً في أي لحظة، وينبغي أيضًا ألا يتأهبَ الحرسُ ويتخذوا احتياطاتٍ أو إجراءاتٍ قد لا تكونُ في صالحي.

صرتُ نجمًا في هذه الصالة الصغيرة، نجمًا لو خرج منها إلى غرفة النوم أو المكتبة يشعر بأنه غادر المسرح، كل ما عليَّ أن أفعلهُ هو تنحيةُ

الستارةِ جانبًا حتى يبدؤوا في التجمع وتنبيه بعضِهم بعضًا وتكون فُرجةً مشوبةً بالضجيج والخيالاتِ الجنسية، أتعمدُ أحيانًا إغلاقَ الإضاءة العادية وترك أباجورة مضاءة خلفنا، حينما يغيبُ القمر، لنستمر في ظهورِنا كشَبحَين.

سيمون أعجبتها الفكرةُ وقالتْ إنّها على استعدادٍ لتكون بطلة العرض بعقد دائم، ضحكنا ونحن نتمدد تحت ملاءةٍ تمرحُ فيها فهود سوداء ذاتُ عيونٍ بركانية، خطر لي أن هذه الفهود قد تتحرك وتلتهمنا في أثناء نومنا، حذرتُ سيمونَ من تركِ نهديها عاريين، خوفًا من القواطعِ التي تُحيط بنا، وضحكنا مرة أخرى، كانت تعلمُ أنَّ هواجسي هي التي تتحدث، ينبغي أن أتخلصَ من تلك الهواجس، قالت: أو عليَّ الكفُّ عن استخدامِ مفارش وملاءات وستائر تمرح فيها حيواناتٌ وكائنات أسطورية.

لنفس السبب أفكر في تغيير مكان سجادة الحرير الصغيرة المعلقة على الحائط المواجه لمكتبي في شركتنا، سألتني عن أسباب شرودي، لكن نظري ظلَّ معلقًا بالغزال الذي يقفز إلى مساحة لا أرى سوى جزء يسير منها، يحاولُ الإفلات من مصيره بينما يد الرامي المتعرقة التي تسحب السهم عن آخره تتأهب لإطلاقه. الرامي في الخلفية، والغزالُ يطير باتجاهي، وهناك فرصةٌ -بقفزة مُباغتَةٍ للغزال- أن يُخطئَه السهمُ ويواصل طريقه باتجاهي، كان الرامي والغزال محاصَرَيْن بشجرٍ متماثل على طرفي السجادة الأيمن والأيسر، بينما تحيط بالسجادة من جميع الاتجاهات أوراقٌ خضراء وزهور نارية متداخلة، تصنع سورًا لا يمكن للغزال تخطيه.

قالت سيمون إنها مضطرة للاعتراف أن خيالها مريضٌ مثلي، لقد فكرتْ أن فوهة بندقية قناصٍ مصوبةٌ إلى قلبها لحظات صعودها وهبوطها أمام الشباك، من حسن حظ القناص أنه رأى النهدين النافرين، ربما شدّه الديك الذي يكاد منقاره أن يلتهم حلمتها اليسرى، وبالتالي ركّز نظره على نهدها الأيسر، الأقرب إلى قلبها، قالت سيمون، لكنها لم تدرك في تلك اللحظة وهي تضحك ضحكاتها المتقطعة أنني أتخيل رصاصته تخترق قلبها وتنفذ منه إلى قلبي.

وجود سيمون منحني هدوءاً نفسيًا كبيرًا، فليس في الأفق ما يشير إلى فتور علاقتنا خلال فترةٍ قريبة، ليست امرأةً متطلبة، كما أنها أدركت منذ اللحظة الأولى اختلافي، أصبحتُ متأكدًا من أنّ الأمور ستسير بشكل طيب، كثيرٌ من الفتيات اتهمنني بالجنون، إحداهن بالذات حينما حاولتُ إعادتها إلى الشباك، بعد أن سمعتْ صافرات المساجين، وتأكدتْ أنني أعلم بوجودهم، بل لا أشعر بالإثارة إلا في حضورهم، هوتْ على وجهي بصفعة، ثم لملمتْ ملابسها من الأرض، وارتدتها سريعًا، متلفظةً بكثير من السُباب، معظم الفتيات كُنَّ منطقيات، بينما تسير سيمون على سحابةٍ من الأفكارِ المجنونة، فكرتْ في اقتيادي إلى أرشيفِ شركتنا، لنمارسَ الجنس في منطقةٍ شبه معتمةٍ خلف الأدراج الضخمة وعلى بعد سنتيمترات من الكاميرات، لكنني كنت قلقًا، قلقًا ومندهشًا، لأن فكرة ظهورنا في شاشات الكاميرات معناه أن هناك جمهورًا يشاهد، لكنه جمهورٌ يعرفنا جيدًا، ثم إن وجهينا سيكونان واضحَين تمامًا، وربما يرفعُ أحدهم فيديو لنا على

"يوتيوب"، استثارت الفكرة سيمون إلى أقصى درجة، ولم تُلقِ بالاً لهواجسي، فلا أحد يدخل الأرشيف تقريبًا، كانت شركة الاتصالات التي نعملُ بها تعتمدُ نظامًا رقميًا متطورًا للغاية، ووجود الأرشيف لحفظ سيول المعلومات التي تمتلكها الشركة بشكل ورقي، لا أحدَ في الشركة يعود إلى تلك الأوراق إلا المحامون وعلى فتراتٍ متباعدةٍ إذا وقع خلافٌ قانوني مع جهةٍ ما، أو في حالة ظهور مندوبي أمن الدولة.

قالت لي إنها تريدني بأي شكل في الأرشيف، وفكرتُ أنني سأظهر في الكاميرات المزروعة في مكاتبنا والطرقات التي توصلنا إلى الأرشيف، تحدثني دائمًا عن منطقةٍ معتمةٍ تقودُ إلى سُلمٍ حديدي، يُفضي إلى بابٍ حديدي ضخمٍ أغلقوه منذ مدة حتى يكفَ العاملون عن الدخول منه إلى الشركة، الباب الحديدي يفصلُ بين الشركة والجراج، أكدَّتْ كذلك أنه ليس هناك خطرٌ ضخمٌ؛ فاليوم جمعة، ومعظم العاملين -على قلتهم- يغادرون مبكرًا، تاركينَ متعلقاتِهم مبعثرةً على المكاتب صانعةً فوضى محببة، الأرشيفُ لحسن الحظ هو المكان الوحيد ذو الحوائط الخشبية، بينما تفصل بين مكاتب الشركة جميعًا فواصلُ زجاجيةٌ لا تعوق رؤية ما خلفها، الجميع يشاهد الجميع بدون حاجة إلى كاميرات، بينما كان الأرشيف سجنُ الشركة الذي يكرهُه الجميع، ويرفضون الاقترابَ منه، جوُّه أكثر برودة من جو غرف الشركة، وكنت بالتالي أكره الذهاب إليه حتى كلفُّوني بتتبع فواتير بعض العملاء من شركة شحنٍ بمصر الجديدة، ذهبت إلى الأرشيف وخرجت بالفواتير وبسيمون التي كانت تراقبني بإعجابٍ بالغ وأنا أمرر أصابعي أمامها على

الأوراق، لم ترفع عينيها عن وجهي حتى في المرات التي تطلعتُ إليها، وبالتالي اعتبرتُ أنني لا أحتاجُ إلى مد خيوطي حولها، لم يكن على العنكبوت أن يظهر، وبالتالي كان من الجيد أنني لن أعود إلى هذا المكان البارد مرة أخرى، ولكنَّها جرجرتني إليه مرةً أخرى، بدون مقدمات اختفى القلقُ من داخلي كأنَّ جرَّاحًا استأصله، بدأنا نبتعد قليلاً باتجاه ممراتٍ من الأرفف المتوازية والمتقاطعة البعيدة عن الكاميرات الثلاث المثبتة على مسافات متباينة بسقف المكان الضخم، طنَّتْ صافراتُ المساجين في رأسي وألهبتني بحماسها، قلَّبتُ في عُلبِ الأرشيف، وأخرجتُ منها بعض الأوراق ليبدو الأمر أمام من يشاهدوننا عاديًا. طالعتُ الأرقام والأسماء غير أنها لم تعن لي شيئا، وتناهى إلى سمعي صوت تنفس سيمون، صار ثقيلاً ومسموعًا أكثر من صافراتِ المساجين في ذهني، شدتني بحركةٍ خفيفة من بنطلوني الضيق الذي يحبس انتصابًا هائلاً، كما يحبس سدٌّ تيارًا هادرًا، في ثوانٍ كنا نقفُ في المنطقة المعتمة، ويبدو أنها جهزت نفسها جيدًا لهذه اللحظة، فقد التصقت بي بظهرها مدركة شعوري في هذه اللحظة بأنني سقطت في بئر، ثم تحركت ببطء وخفة وأمالت نصفها العلوي على شيءٍ ما، وهمستْ قائلةً إنَّها أحضرتْ وحدةَ أدراجٍ من الداخل، فهمتُ وأنزلتُ البنطلون بسرعةٍ ورفعتُ جيبتها قليلاً، وانغرسَ عضوي فيها بسهولةِ انغراسِ إصبعي في قالبِ جبنٍ أبيض، ولكن تحت تأثير الحركة البندولية مني إليها، ومنها إليَّ ثم إلى وحدة الأدراج، انفتح درجٌ فجأةً بقوةٍ وقذفنا إلى الخلف

فسقطنا في الضوء، ثم بفزعٍ وسرعةٍ شديدين زحفنا إلى العتمة مرةً أخرى، وفكرنا أن العمال في طريقهم إلى هنا الآن.

لن تظهر سيمون في الكاميرات لأنني كنت أغطيها، وبالتأكيد لم يحصلوا سوى على صورة مؤخرتي، لكن ماذا لو جاؤوا إلى هنا؟! وقفنا خلال ثوانٍ في أحد ممرات الأدراج نرتعش كأن السقف يمطر ثلجًا، مددتُ يدي لأوقف رعشاتها المستمرة، ومدت هي يدها لتفعل نفس الشيء، ثم ضحكتْ، وضحكتُ، وعلا صوت ضحكاتنا، قبل أن نقرر مغادرة الشركة سويًا، لم يعد هناك شيءٌ نخشاه ـأو هكذا شعرناـ لكننا فوجئنا بأن جميع الموظفين والعمال بمن فيهم عمالُ الكاميرا يقفون في الصالة يشاهدون شيئًا في الشاشة المعلقة أمامهم، وفكرت للحظة أنهم ربما يشاهدون إعادةً لما جرى في المنطقة المعتمة، غير أن الصوت الذي يصل إلينا كان يقول شيئًا آخر، هناك حرائقُ، وأشخاصٌ يجرون في الشوارع يحملون كراسي وكراتين وعلبًا ضخمة، أحدُ الواقفين صاح: "الدنيا خربت!"، هبطنا إلى الكورنيش ورأينا عشراتٍ يخرجون من المباني حولنا، وأمن الفندق الضخم يقف متأهبًا بالرشاشات القصيرة، في المسافة بين الفندق ومركز التجارة العالمي، رأينا شخصًا يحمل نصف مانيكان لامرأة، ويجري بها في اتجاه التحرير، قلت لسيمون إنني أفكر في حملها هكذا فضحكت بينما تتابع المشهد، كان سائقو السيارات يقودونها كأنّهم في مسابقة، وقالت سيمون إنها لم تحضر بسيارتها منذ بدأ تجمع الناس في ميدان التحرير، وقلت نفسَ الشيء، ظللنا واقفين نشير إلى الميكروباصات والأتوبيسات والتاكسيات التي تمر

بدون فائدة، كانت تمرق كالوميض، وليس أمامنا سوى السير على أمل بأن تتوقف إحداها.

سرنا ملاصقين للسور، وكان مدهشًا أنَّ سكان النهر لا يشعرون بما يجري على الأرض، كان هناك مركب تنبعث منه أغاني مهرجانات وتحت في زحمة الأجساد راقصين وراقصات، الدخان ينبعث من المباني حولنا ويزحف صانعًا حجابًا بين الأرض والسماء، وأنا أمسكُ بيدها غير مهتمٍ بمن يمكنه رؤيتنا من زملائنا، وفكرتُ في أنَّ عليها الشعور بالقلق، تطلعتُ إلى رأسها محاولاً اختراقه لأرى إن كانت تفكر في زوجها المسافر للعمل في البرازيل أم لا، تجاوزنا مبنى ماسبيرو، وكان علينا في عبد المنعم رياض أن نسرِّع من خطواتنا، لنعبر ما بدا أنه معركة لا أعرف بالضبط أطرافَها، كان هناك أشخاصٌ يجرون في جميع الاتجاهات، والأحجار تنهمر من أعلى كوبري أكتوبر، ثم بعد قليلٍ رأيتُ النيران تلتهم مبنىً، وسمعنا هديرَ طائرات، ورأينا خراطيم مياه تندفع من سيارات المطافئ الحمراء، نسيتُ ما جرى في المنطقة المعتمة بالشركة، وقلقنا من عمال الكاميرات، فقد بدا لي كما لو أننا انتقلنا فجأة إلى ساحة حرب، ومع هذا لم أكن قلقًا ولم تكن سيمون كذلك، بل حاولت إرسال إشاراتٍ عبر يدها الطرية إليَّ بضغطات متتالية كل فترة وكنت أتطلع إليها فتبتسم، كان الناس يسيرون أفواجًا معنا على الكورنيش ولاحظت أن السيارات توقفت عن المرور منذ مدة، سمعنا سارينة إسعاف، وسارينة مركب ضفادع بشرية وأغاني سكان الماء، وتخيلت أن هناك عدوًا مجهولاً يهاجمنا، بعد ساعةٍ تقريبًا من المشي

المتواصل وصلنا إلى كورنيش المعادي، وفوجئت بنفسي أشد ذراع سيمون بعد كشك وزارة الزراعة المغلق متجهًا بها عبر فتحةٍ صغيرة إلى النيل، قدتُها إلى مشتل، اشتريت منه زهرةً بيضاء وضعتها بين يديها المتشابكتين أمام صدرها فابتسمتْ، واصلنا المسير وعبرنا كوبري المعادي، ثم ظهر عساكرُ الشرطة العسكرية كالنمل الأحمر أمام مجموعة من الكافيتريات على النيل، وأخيرًا وصلنا إلى السجن فانحرفنا يسارًا إلى الشارع الذي يسبقه، وشددتها حتى صرنا بمحاذاة السور، وبدأت أتحسس جدرانه، وتطلعت إلى برج المراقبة، ولاحظت أن عسكري الخدمة يختفي خلف أجولةٍ صغيرةٍ من الرمل، كانت هنالك رائحةٌ غريبة في الجو بخلاف رائحة الدخان لم أفهم مصدرها وفكرت أنه ربما يكون رأسي، بمجرد دخولنا الشقة غادرنا العالَمَ بأسره، ثم أصابتني موجةُ طنين أفقتُ منها على صوتِ التلفزيون الذي شغلته سيمون، كان ينقل المشاهد التي تركناها خلفنا، فالتقطتُ الريموت وأغلقتُه مرةً أخرى، جلسنا على كرسيين متقابلين، وبدأنا نتعارك بأصابع قدمينا، وبعد قليلٍ نهضتُ واتجهتُ إليها وقبَّلتُها، ثم سحبتُها من يدِها واتجهنا إلى الشباك وأزحتُ الستارة، وقفنا نتطلعُ إلى السجن، كان ملفوفًا بغطاء غليظٍ من الصمت، لم يكن أحدٌ في محيط رؤيتنا باستثناء بعض الضباط والأمناء يقطعون فناء السجن وممراته جيئةً وذهابًا، كانت حركتهم متوترة، وبدا كما لو أنَّهم حَشَوا أفواه المساجين بالغِراء، لم أكن معنيًا كثيرًا بما يجري، ولا سيمون.

مدتْ يدها ومررتْها على صدري، ومررتُ يدي على نهديها، لم أعبأ بإضاءة الغرفة، ولا بالقمر الذي التهمته سحبُ الدخان السوداء، لم أفكرْ كثيرًا في ضرورة ظهورنا كشبحين، خاصةً أنّ الجمهورَ غائبٌ، كنا على وشك تقديم عرض استثنائي، وقفتْ بقدميها فوق قدمي، صارت خفيفةً للغاية، واندهشتُ لأنني لم أحتجْ هذه المرة إلى الحماس الذي يبُثه فيَّ المساجين، غير أن صوتًا خُيِّل لي في البداية أنه يَخُصُ المسجدَ القريبَ أنهى انتصابي في لحظةٍ، فقد تبيَّنتُ أنه لمأمورِ السجن الذي أعلن عن نفسهِ عبر الميكرفون بوضوحٍ موجهًا رسالته إلينا: "إلى السادة الجيران، يُرجى الالتزام بالآداب العامة"، كرر جملته أكثر من خمس مرات، وأبعد فمَه عن الميكرفون وبدأ يوبخُ ضباطَه وأمناءه، نقل الميكرفونُ صوتَه بجلاء رغم أنه لا يتحدث فيه مباشرةً، طالبَهم بالانتباه والتزامِ الحيطة والحذر، وعدمِ استراق النظر إلى الجيران "أولاد الكلب" الذين يفعلون ذلك، وإلا سيضعهم مع المساجين في الزنازين، "السادة الجيران! هذا فعلٌ فاضحٌ يجرمُه القانون، تحذيرٌ أخيرٌ قبل أن أبلغ الشرطة"، لم أشعر بالقلق، ويبدو أن ما يجري في الخارج هو ما يقلق المأمور، لم يكن عليَّ كذلك الشعور بالقلق لأن عماراتنا تقع في صفٍ متواز، وحينما نطلُّ من شبابيكنا وبلكوناتنا نُشكّل جمهورًا في مدرجٍ واحد يشاهد ما يجري في السجن، ببساطة لن يراني جيراني إلا إذا وقفوا على سحب تحلق فوق السجن، ضحكتْ سيمون قائلةً: إن المأمورَ بالتأكيد يفكرُ في المجيء إلينا ليشاركنا الحفلة، فقلت: "أو ليغتصبَنا"!، ضحكنا ثم انتبهنا في هذه اللحظة إلى أصوات جلبةٍ صادرةٍ من السجن،

كان المأمور يصرخ: "اعجنوهم"، لم أفهم كيف خرج المساجينُ من زنازينهم، هل فتح لهم أحدٌ الأبواب، أم أنَّ المأمور هو من أمر بإخراجهم لتأديبهم على شيء ما ارتكبوه كما يفعلُ أحيانًا؟! كان المساجينُ على غير العادة ثائرين للغاية، وكانوا يستقبلون الهراوات على سواعدهم وأجسادهم ويهجمون على الضباط والأمناء والعساكر، ثم إنهم أسقطوا المأمور على الأرض، فصرخ "يا أولاد الكلب"، كنت من مكاني أراه يحاول النهوض، ولم يساعده ضباطه المشغولون بمعركتهم، لم يشاهدوا السجين الضخم الذي اقترب منه وضربه بقدمه في بطنه فأعاده إلى الالتصاق بالأرض ثم اختطف منه الميكرفون، رأيتُ السجينَ يهرول بعيدًا عن الأجساد المتلاحمة، والضباط انتبهوا إليه وبدأوا يصرخون في الأمناء والعساكر أن يوقفوه، تفاداهم ونظر باتجاهنا وهتف في الميكرفون: "يا ريت تبدأوا العرض بسرعة!"، ضحكنا، كانت ثورة السجنِ محددةَ الهدفِ تمامًا وهو: أن يستمر عرضنا، ومع ذلك كانت الثورةُ عارمةً، بدا واضحًا أنَّ الحرس لن يستطيعوا المقاومة طويلاً، وخطر لي لوهلةٍ أن انتصارَ المساجين الموشكُ قد يتجاوزُ السجن، قد أجدُ بعضَهم هنا، يرغمونني على أداءِ العرض، ما لم يقرر أحدهم أن يكون هو البطل، مع سيمون، وربما معي.

لا أعرفُ في أي شيء تفكرُ سيمون، المؤكد أن عينيها معلقتان بفناء السجن، لا تحيدان، لعلها لم تشعرْ بارتخاء عضوي بين كفليها، فجأةً سمعنا المأمور يهتف في الميكرفون: "اعملولهم اللي عايزينه"، صوته اختلط بصوت السجين الذي لا يزال يهتف "يا ريت تبدأوا العرض

بسرعة!"، المأمور بشكل ما نجح في النهوض وربما الجري إلى غرفة ما والإمساك بميكرفون آخر، وبدأ في ترديد ندائه، فهل يقصدنا نحن، أم يقصد ضباطه؟! ربما يأمر ضباطه بترك المساجين ليشاهدوا العرض، وربما لأنه أدرك صعوبة النجاح في المعركة يريد منا بدء العرض، فرصته الوحيدة في قمع ثورته الصغيرة هي أنا وسيمون، ينتصب عضوي من جديد.

أقتربُ من سيمون، لم أرَ جسمًا أشهى منه قبل ذلك، اقتربتْ مني، واقتربتُ منها، احتضنتني بقوة، واحتضنتُها بحماسٍ، غاصَ جسدُها اللدنُ في جسدي، رأيتُ أنني لا أريدُ أن أترك هذا الجسد، لا أريد شيئًا في هذه اللحظة إلا أن أكون بداخله.

ولسبب لا أعرفه، كانت يدي تبتعدُ مؤقتًا عن جسدِ سيمون، وتغلقُ الستارة.

النوم مع فتاة مودلياني

أرتدي دائمًا "بيجامةً" أسفل قميصي وبنطلوني، حينما أضطر للمبيت لأي سبب خارج المنزل ليس عليَّ سوى نزع القشرة الخارجية، واستدعاء النوم بمجرد التفكير فيه، كلما رأيتُ فتاة مودلياني أمدُّ يدي وأمررُها على كتفِها العاري، لا أفكر في الكاميرا التي يراني من خلالها مديرُ البنك، لا أخشى ظهورَه وصياحَه أمام الموظفين أنني قد أفسد لوحةً باهظةَ الثمن، لا أفكرُ سوى في سؤالها إن كانت مستيقظةً أم لا؟! أريدُ إخبارها بأنني في حاجةٍ ماسة إلى النوم معها، ثم النوم إلى جوارها، أريد إخبارَها كذلك برغبتي الماسة في أن تعرفَ أسطورتي.

لم يكن استدعاء النوم سهلاً قبل عملي بالبنك، أستعيد صورتي منذ سنواتٍ، وأنا أركبُ "ميكروباصًا" من وسطِ البلدِ إلى الهرم بعد سهرةٍ مع الأصدقاء حتى الصباح، يهجمُ عليَّ النومُ طوالَ الطريق، يصبحُ شرسًا حينما أقتربُ من منطقة "نصر الدين" حيث أسكن، أحاول الانتباه ابتداءً من مدخل الجيزة، أقاومُه بقوة ويلفني بقسوة،

أقول لنفسي يجب أن تستيقظ، أنت على وشك الوصول، ولكني أسقط في النوم أخيرًا، ويوقظني السائق في نهاية الخط.

أقول للسائق إنني سأعود معه، وأُركّز حتى لا أنام مجددًا، ولكنه يوقظني في نهاية الخط بميدان عبد المنعم رياض ضاحكًا، لن يخسر شيئًا، فهو يحصل على أجرته في كل مرة، شعرتُ بالغضب ثم فكرتُ أن الأمر سيان في النهاية، ليس هناك عملٌ ينتظرني، صحيح أن عظامي تؤلمني لكني أحصل على قليلٍ من النوم على هذا الكرسي، في المرةِ الثالثة أيقظني السائقُ بعد نفق الهرم مباشرة.

وفي مرةٍ أخرى أوقفَ ضابطٌ التاكسي وأنا ممددٌ على كنبته، كنا فوق كوبري الملك الصالح حينما سمعتُ صوتَ خبطات قوية، والسائقُ يصيح عليَّ لأستيقظ، لم أكن في حاجةٍ إلى صياحه فقد أيقظني الصوت، ورأيتُ يدَ الضابط تهوي على صاج التاكسي، أمرني بالنزول وبدأ وصلةَ أسئلةٍ لم أستوعبها في البداية، عن الجهة التي أقصدُها، ومن ينتظرني في المنزل، وكم عدد أشقائي، ومن هم أصدقائي المفضلون، وأين أقابلهم؟ أجبته باندهاش حتى سألني عن عدد المرات التي أمارس فيها العادة السرية خلال يوم واحد؟! شيءٌ ما قال لي إنني أحلم في هذه اللحظة، لكن يبدو أنني لا أحلم.

أشعةُ الشمس انعكست على وجهي وأجبرتني على إغلاق عينيَّ كأنها تساعد النوم على غزوي مجددًا، بدأ الضابط في الصياح عليَّ لأجيب، رفع سبابته اليسرى صانعًا قضيبًا احتواه براحةِ كفه الأيسر

وبدا كما لو أنه يستمني، فضحك العساكر وأمين الشرطة، كما ضحك سائق التاكسي، كان الضابط يسلّي نفسه في الأغلب، والنعاس يهجم عليَّ بضراوة.

انتشرت تلك الطبقةُ الضبابية الكثيفةُ مجددًا حول عقلي، وتسرَّبت منه إلى عيني، أصبحتُ غير قادرٍ على سماع ما يقوله الضابط جيدًا، وربما شعر بالغضب إذ لكزني بقوةٍ في كتفي، انقشعَ الضبابُ لثوانٍ عن عقلي قبل عودته لمهاجمتي، الضابط في هذه اللحظة أدرك مُعاناتي ومدَّ يده فاتحًا عيني اليمنى بإصبعين قائلاً إنه سيكشف عليَّ، وسألتُه بصوت خفيض: "فين؟!"، فقال: "أكيد مش في العيادة يا روح أمك!".

الضابط صرف التاكسي وطلب مني ركوب البوكس، نمتُ في مكاني على الكنبة الحديدية، ضربني أمين الشرطة على ظهري فاستيقظتُ، ثم عدتُ للنوم مجددًا، وفي القسم أنزلوني الحجز، الضابطُ أمرَ أمينَ الشرطة بتوصية "الحبسجية" عليَّ، بمجرد دخولي الحجز لم أنتظر طويلاً، خلعتُ فردتي الحذاء ووضعتهما تحت رأسي وغَططتُ في نومٍ ثقيل لم أستيقظ منه إلا على لسعةِ نارٍ في أصابع قدمي، كان "الحبسجية" يضعون أكياسًا بلاستيكية صغيرة بين أصابعي ويشعلون النار بها، فتحترقُ سريعًا، متحولةً إلى سائلٍ لزجٍ شديد السخونة يأكل شعر أصابعي، ويلتصق بجلدي، أستيقظُ فأجد كلاً منهم ينظر في اتجاهٍ بعيدًا عني كأن الأشباح هي التي تمرحُ معي.

طوّرت قدرتي على النوم بحسابِ تدريجيًا، كنتُ أنامُ في التاكسيات، أُخبرُ السائق بوجهتي، وأركز جيدًا في أثناء نومي، أسمع صوت الراديو وحوارات السائق في التليفون، وضجيج الشارع، وحينما يتوقف التاكسي أستيقظ والسائق على وشك الصياح ليوقظني، أنامُ أيضًا في اجتماعات العمل، وأمتلك قدرةً على إقناع أي متحدث أنني الأكثرُ اهتمامًا بما يقولُه، أنامُ حتى ينهي كلامه، وأستيقظ مديرًا رأسي إلى المتحدث الجديد، عائدًا إلى النوم وهكذا، أنامُ كذلك في الكافيتريات منصتًا إلى الصوت العجيب الناتج عن اختلاط أصوات أصدقائي بأصوات الناس حولنا، والأغاني التي تنساب من السمَّاعات، كنت أراهنهم على أنني أستطيع الاستيقاظ في أي لحظة وإكمال مناقشةٍ معهم، طوّرتْ قدراتي بمرور الوقت على فصل الأصوات عن بعضها، رغم قوة امتزاجها، كأنني خبير صوتيات.

يقسم أصدقائي على أنهم يسمعون صوت تنفسي المنتظم ويندهشون حين أسرد عليهم ما قالوه، فأعتبر ذلك نوعًا من الإطراء، كما كان مدهشًا لهم أنني أدخل السينما رغم كراهيتي لها، وأستيقظ لأحكي لهم جانبًا كبيرًا من أحداث الفيلم.

يحلو لمدير البنك أن يقف خلفي، يتطلعُ إلى عينيَّ المفتوحتين اللتين تنظران إلى شاشةٍ مطفأة، وأصابعي التي تستريحُ فوق الكيبورد بدون أن تتحركا، أستيقظُ رغم أنه يحرص، كما يقول لي زملائي دومًا، على عدم إصدار صوت، وأنظرُ إليه، يسألُني باندهاشٍ لمرة جديدة كيف أنامُ فاتحًا عينيَّ هكذا؟! أنظر إليه بشكلٍ خاطف، وأضغط على مسطرة

الكيبورد فتعود الشاشة للإضاءة، أقول له إنني أمتلك بطارية في عقلي تشبه بطارية الموبايل، أعيد شحنها لأستعيد قدرتي على العمل لكنه لا يرد، وأشعر أن نظراته المُصَوبَة إليَّ -رغم أنني لا أراه في كل مرة- تخترق رأسي.

أتذكرُ النومَ حين أشعر بالحاجة إلى إغضابِ شخص ما، كالمدير الذي لا يفعلُ شيئًا سوى مراقبتنا في الكاميرات، أنامُ لخمس أو عشر دقائق دون أن أغلق عينيَّ، كل ما عليَّ فعله هو أن أضغط زر "سكيب"، ثم أركز قليلاً في النوم، كان تمرينًا بسيطًا، أظل أكرر بيني وبين نفسي "أفكر أنني لا أفكر"، "أفكر أنني لا أفكر"، أفكر أنني لا أفكر"، وتأتي لحظةٌ فإذا بي فعلاً لا أفكر، ربطت ذلك التمرين بزر "سكيب"، وصرت حتى -حين لا أكون قريبًا من كيبورد- أتخيلُ شكلَها، أتخيل إصبعي يتجه إلى الزر في أعلى يسارها، ويضغط برفق، وحينئذٍ تبدأ رحلتي الخاطفة إلى اللامكان.

ظلَّ المديرُ لفترة طويلة لا يشك أنني نائمٌ مع أنه يراني في الشاشةِ أمامه، وضعي مثالي، ظهري يلتصق بمسند الكرسي، عيناي على الشاشة، ويداي على الكيبورد، تأخرت في النوم ذات مرةٍ فشكَّ في عطل بالكاميرا، ليس معقولاً بالنسبة له ألا أتحرك طوال ساعةٍ تقريبًا، أنامُ تمامًا ومع هذا أسمع كل شيء حولي، أسمع زملائي وهم يتحدثون عن المدير وتكليفاته، أسمعهم وهم يتحدثون عن علاقاتهم، أسمع مزاحهم، وكلامهم في الكرة والسياسة والفن، أسمع همهماتهم

وأحولها إلى سيلٍ من الأصوات لا معنى له إلا حين يتوقف، فهذا معناه أن المدير ظهر بالمكان، أعرف أنه يقف إلى جانبي بعد لحظات من وصوله، وأتعمد لمس المسطرة بخفة والانشغال بأي شيء، كالكتابة في ملف "Excel"، أحضرني ذات مرةٍ إلى مكتبه وحدَّثني عن الفرصِ التي يمنحها لي بينما ركَّزتُ في اللوحةِ خلفه، وسألت نفسي كيف يحب هذا المدير الضخمُ فتيات مودلياني الرقيقات المتوحدات الحزينات؟! ينتابني شعورٌ مربكٌ كلما جلستُ في مكتبه، فهو أقربُ إلى شخصيةٍ من شخصيات بوتيرو، بطبقات الشحومِ التي تغطي جسدَه، وباللمعة المَشُوبةِ باحمرار التي تغطي وجنتيه، أتخيلُ أنه هرب من لوحة "لبوتيرو" وجاء إلى البنك، ووجد هذا المكتب خاليًا فجلس عليه ومن لحظتها أصبح مكتبه، وأتخيلُ فتاة مودلياني المحبوسة في إطارٍ خلفه تعاني، أفكر في كل ذلك حتى تنتظم أنفاسي، وأنام، أنامُ متطلعًا إلى عينيه، وإلى شفتيه اللتين تتحولان رغم تحركهما اللانهائي إلى الوضع الصامت، وأستيقظُ حينما يأمرني بالانصراف، مكررًا "تفضل" أكثر من مرة.

يحلو لي أحيانًا النومُ في السيارة، خاصةً في أوقاتٍ متأخرةٍ من الليل حتى أختبر قدرتي على السير نائمًا لأطول مسافة ممكنة في شوارع القاهرة الخالية، أنام مثبتًا كفي على المِقود، وأستيقظُ حينما أسمع صوت احتكاك الإطارات برصيف، أو بسورٍ، كان الأمرُ عنيفًا في بعض الأحيان، فقد اصطدمتُ مرةً بفرع شجرةٍ، وكِدتُ في مراتٍ أخرى أن أدهس عددًا من المارة، لطالما استيقظتُ على صوت لَعَناتِهم، أخذ النومُ

منحنىً جديدًا بالنسبة لي من التحدي إلى الإثارة، كنتُ قادرًا على استدعائه في أي وقت، كأنني أضغطُ زرًا، فتبدأُ غلالةٌ رقيقة من الضباب في احتواء عقلي.

حينما تحكمتُ بالنوم صار بإمكاني التفكيرُ في الانتقام من الضابط، تعمدت الذهاب إلى العمل أو المنزل عبر كوبري الملك الصالح وأنا أُمنِّي نفسي بمقابلته، كان النوم في المرة الأولى هو نقطةُ ضعفي، حيث يشوش ذهني، ويجعلُني أشعرُ بالإحباط، وكنت منذ سنوات أشعر بالضيق من نفسي لأنني لا أستطيع مقاومته، غير أنني أصبحت الآن قادرًا على التحكم به، وتحويله إلى سلاحٍ فتاك، صار ببساطة سلاحي حين أتمرد، وكان من الجيد أنني لن أشعر بذلك القلق الذي ينتابني حينما يهاجم الضبابُ رأسي، لأنني أصبحتُ قادرًا على استدعاء ذلك الضباب وطرده، لم يكن ممتعًا ذلك الشعور حينما يوقفُكَ أحدٌ بالرغم منك محاولاً مُنازعة النوم سلطانَه عليك، كان الضابط والنوم يتناوبان عليَّ وقتها، ولكنني الآن أستطيع الاستناد إلى الحائط الصلب الذي صرتُ أمتلكه، أتطلعُ بشغفٍ إلى تحدي الضابط، لكنه في المرة التالية التي أوقفني فيها نظر في كارنيه البنك وأعاده إليَّ قائلاً: "تفضل"، غير أنني تلكأتُ في استعادته، مغلقًا عينيَّ، فألقاه على حجري صائحًا: "قلت تفضل!". لم يتذكرني في الأغلب، فكرتُ أنه من الخطأ إبراز الكارنيه، كان يمكنني القول له كالمرة الماضية ـولكن كاذبًا هذه المرةـ إنني لا أعمل.

قدراتي على النوم مشروطةٌ أيضًا فلم يكن طبيعيًا، على سبيل المثال، أن أستدعيَه بعد نومي عددًا وافرًا من الساعات، عليَّ الشعورُ فعلاً بالحاجة إلى النوم وعليَّ كذلك أن أكونَ مجهَدًا أو مشتتًا، يطيبُ لي كذلك حينما أمارس الجنس أن أنام فوق الفتاة، أرفعُ يديَّ بحيث تصبحان موازيتين لجسدي، وأترك نفسي للجاذبية، جسدي يصبح ثقيلاً، وصوت أنفاسي المنتظمة يصبح مسموعًا، ينام عقلي لكن عضوي يبقى مستيقظًا كأنه يخصُّ شخصًا آخر، أضعُ منفضدةَ السجائرِ فوقَ صدري أو صدرِ الفتاة وأُدخنُ قليلاً وأنام، أنامُ بينما يدي لا تزال تمسك بالسيجارة، وأستيقظ دائمًا في وقتٍ ممتاز، قبل سقوط رماد السيجارة فوق صدري أو صدرها، أسمع تحذيراتِ الفتيات، يصحْنَ دائمًا عليَّ لأنهض، يحذرنني من النار والرماد، الرماد يصير في طول السيجارة، حتى لو سقط فوق صدري وأحرقني سيكون علامةً لاحتياجي إلى تطوير قدراتي على الاستيقاظ، لا أستيقظ إلا مع الرائحة السيئة الناتجة عن وصول النار إلى الفلتر، حتى صارت تلك الرائحةُ علامةً على لقاءاتي الجنسية.

ناداني المدير في أحد الأيام وأخبرني عن وفد مستثمرين إنجليز سيأتي إلى البنك غدًا لتوقيع عدد من الاتفاقيات معنا، وتفكيره في دعوتهم لمشاهدة لوحات الفن التشكيلي الأصلية التي يمتلكها البنك لفنانين مصريين وعالميين، المديرُ قال كلامًا كثيرًا عن براعتي في الحديث عن تلك اللوحات، لن يجد شخصًا أفضل مني يضحك، بدلاً من نومي أستطيع تقديم خدمةً إلى عملي، عليَّ قيادة أعضاء

الوفد من غرفةٍ إلى أخرى، ومن صالة إلى ثانية، وأيضًا عليَّ اصطحابهم إلى الطرقات التي تربط الغرف والصالات حيث يوجد أكبر عدد من اللوحات، كان المدير يتحدث بينما أتطلع إلى فمه وأتخيله عاريًا ومشويًا فوق صينيةٍ ضخمة، تحيط به الخضراوات ويتصاعد منه الدخان، بينما يغلقون فمه على تفاحة، وفكرت في إخباره حالاً بخيالاتي، وفكرت كذلك أن أصيح في وجهه بحماس صديقٍ قديم أنه يصلح ليكون تمثالاً ممتازًا إذا ثبتناه في قاعدةٍ ووضعناه في مدخلِ البنك ليشاهده العملاء في دخولِهم وخروجهم، كنت على استعدادٍ للاقتناع بأن "بوتيرو" نحتَه.

على أي حالٍ لستُ مقتنعًا بما يطلبه مني، وفكرتُ في أنه ينتمي إلى فئةٍ تحب إقحام نفسها في أدمغة الناس، ليس هناك شيءٌ يمكن قوله بخصوص اللوحات، يستطيع المستثمرون مشاهدتها ورؤيتها كما يحلو لهم، خاصة أنَّ شهرتها طاغية، قد أتدخل فقط لأوضح بعض التواريخ المتعلقة بها أو برساميها، أردت إخباره بذلك لكنني آثرت الصمت.

سبقتُ المستثمرين بخطوة، شابكًا كفي خلف ظهري، لم أنطق منذ تحركنا في غرف البنك وممراته، وتولى مديري الحديث، قال كلامًا غريبًا عن محبته لألوان تلك اللوحات، مكررًا الكلام نفسه مع كل لوحة يتوقفون أمامها، وكان بالكاد يتذكر أسماء بعض الفنانين، وحينما ينشل أميلُ على أذنه هامسًا بالاسم، تفرستُ ملامح أعضاء

الوفد، ورأيت الثلوجَ تكسوها حاجبة أي انفعالات تحت طبقةٍ بيضاء كثيفة، توقفوا أخيرًا أمام لوحة مودلياني، لوحتي المفضلة "عاريةً نائمة"، لطالما تخيلت ذلك الكحل الكثيف الذي يغطي عيني المرأة الجميلة غلالة نومٍ رقيقةٍ تحجب تأرجحَها في زمنها، بين عالمِ النشوة، حيث لا تريد العودة من هناك، والواقع الذي يشدُّها ويشدنا جميعًا في النهاية، أردتُ ممارسة الجنسِ مع هذه الفتاة إلى ما لا نهاية، كأن مودلياني خلقها لأجلي، نمارسُ الجنس ونحن نائمان، نجرب متعتين في نفس الوقت، لن نعرف ما الذي يمكنه أن يكون أقوى تأثيرًا منهما، متعة الجنس ربما تنطفئُ بسرعةٍ مثل أي شيء جميل، وإذا قسناها بحجم متعة النوم ستبدو مثل نقطة في بحيرة، فكرتُ أننا سنستيقظ جائعَيْن، نبحثُ عن سمكة مشوية لذيذة أو شريحة لحم مطهوة على نار شمعة، نستطيع أن ندور في هذا الفلك اللانهائي دون أن نحدد ما الأولوية بالنسبة لنا.

الأكل، النوم، الجنس، أو الجنس، النوم، الأكل، وربما النوم، الجنس، ثم الأكل، لن نختلف، لن أدعها تختلف معي، ولن أختلف معها، أفكر في كل ذلك، بينما يشير لي المدير الذي يعرف أن هناك صلةً ما تربطني بهذه اللوحة، لطالما رآني متسمرًا أمامها، أرادني أن أتحدث، لكنني عوضًا عن هذا تطلعتُ إلى شفتي العارية النائمة وجلست على الأرض مستندًا إلى الحائط في مواجهتها، تراجع أعضاء الوفد ولم يتسن لي مشاهدة إن كان شيء من الثلج قد ذاب على وجوههم وسال فوق وجناتهم، سألني المديرُ ببدهشةٍ وربما بغضب- ماذا أفعل؟! بينما

انتظمت أنفاسي في هذه اللحظة وازداد جسدي ثقلاً، ونهضت العاريةُ النائمةُ متجهةً إليَّ، سارت ببطء شديد والكحلُ يتساقط من عينيها على أرضية الممر النظيفة، قبل أن تثني جذعها وتترك جسدها ينزلق بهدوء إلى حجري.

إشارات حمراء تفضي إلى بحر

آخر ما كان يتوقعه، أن تتكرر الكارثةُ مرةً أخرى، وفي أقل من أسبوع، في المرة الأولى كانت زوينة نائمةً في سريره أيضًا مثلما هي الآن.

سمع صوت سارينة إسعاف، ثم جلبة عدد ضخم من السيارات تأتي في الشارع من بعيد، لم يكن المشهد عاديًا، في هذا التوقيت، كانت الثامنةُ مساءً، والشارع الخالي اكتظَّ فجأة بعدد ضخم من السيارات التي لم يتبيَّنها من مكانه، خلف ستارة الشباك، وفكَّر أنها بمعدل سرعتها البطيء ذلك ستمرُ أمَامه خلال دقيقة، لاحظ فخامة كثير من السيارات السوداء التي تسير في الصف الأمامي وترفع علم السلطنة، ربما يكونُ موكبَ مسؤولٍ كبير، فكَّر في ذلك، موكبٌ بهذه الضخامة ينبغي أن يكون للسلطان شخصيًا، أغلقَ جزءًا كبيرًا من الستارة تاركًا لنفسه مساحة سنتيمتراتٍ للنظر.

بدا أن الموكبَ ينبغي أن يواصلَ طريقَه إلى الناحية الأخرى، هكذا قال لنفسِه، لكنَّ الموكبَ توقف أمام بيته تمامًا، عددُ السيارات أكثر مما

تخيله، حاول العد وفشل، إذ أن السيارات في الأمام على الربوة حجبت السيارات في الخلف، وكان مدهشاً بالنسبة له وجودُ سياراتٍ عادية يقودها هنود في الموكبِ، هناك شيءٌ خاطئٌ، حاول إقناعَ نفسه بذلك، ربما ليس موكبًا، وربما هو مقدمةٌ لموكبٍ ما، من الصعب انضمامُ سياراتٍ عادية وبالية، مثل تلك التي يشاهدها بجلاءٍ الآن، في موكب السلطان.

خبط راحته على جبهته كأنه يطرد الأفكار الغريبة، منتظرًا تحرك الموكب، لكن مرت دقيقة أو اثنتان بدون أن يحدث شيء، قبل أن ينزل بعض الضباط، وخمّن مِن زيهم أنهم حرسُ السلطان، كما هبط مجموعةُ رجالٍ يرتدون الزي العُمَاني، تلفتوا في جميع الاتجاهات وأشار أحدهم باتجاه الستارة التي يقف خلفها فأغلقها، وحينما فتحها بعد ثوان رأى السلطان في مواجهته، ليس في مواجهته فقط بل كان يسير باتجاهه.

كان من الغباء أن يشعر أنه المقصود بزيارة السلطان، ثم عاد وفكّر، أنّ الجهة التي يقصدها السلطان ليس بها سواه، قلبه يرتد من قفصه الصدري إلى مكانه كما ترتد كرة التنسِ إلى يده حينما يقذفُها إلى الحائط، بالتأكيد خبأتْ زوينةُ عنه شيًا ما، هو لا يعرف أهلَها جيدًا، ولكن يبدو أنهم نافذون، نافذون ربما إلى حدود السماء، ومع وجود السلطان عليه أن يفكر في سيناريوهات أخرى ستحدث له، سيناريوهات أكبرمن الترحيل، السلطان جاء بنفسه ليراه ويتحدث معه عن علاقتهِ بالفتاةِ العُمانية، كانت هذه الجملةُ تحتك بعقله، كما يحتك عودُ ثقابٍ بعلبة كبريت، أصبح رأسُه كتلةَ لهب، ولم يشعر بنفسه إلا

وهو يشد زوينة من ذراعيها الاثنتين، نهضتْ مفزوعةً ومتسائلةً، وحاولتْ وسطَ دهشتِها لملمة الكلماتِ المُبعثرة التي ينطقُ بها، نامتْ مرتديةً ملابسها بالكامل، بعد أن ظلت الرغبةُ ثوبًا رقيقًا يغطي عُريها لساعات.

كانت مصدومة، وحاولت أن تقول شيئًا ما، رأى شفتيها تتحركان بدون كلام، لكنها نطقت أخيرًا: "السلطان؟!" ثم هرولتْ باتجاه الشرفة وفتحت جزءًا يسيرًا من الستارة، بينما تسمَّر في مكانه، منتظرًا رنين جرس الباب خلال لحظات، زوينة أطلقت ضحكة عالية، هرول نحوها، ونظر معها إلى الخارج، لم يكن السلطان موجودًا، كأنه تبخر، بينما يقف كثيرٌ من الحراس في مواجهتهما، جزءٌ ينظر باتجاههما، وجزءٌ في الاتجاه الآخر حيث الفيلا، ضحكت زوينة هذه المرة ضحكةً طويلة فوضع يدَه على فمِها، لكنها أبعدتها مشيرةً إلى الفيلا وطلبتْ منه النظر جيدًا إلى التاج المرسوم على بابها، لا يعني التاج له شيئًا، شاهده كثيرًا في السابق ولم يلفت انتباهه، يراه نقشًا، مجرد نقش، ثم إنَّ هذه الفيلا بالذات لا يدخلها أو يغادرها أحدٌ، هزَّ كتفيه فقالتْ إنَّ الفيلا تخصُ السلطان، ربما يتفقدُها الآن، ربما يستريح فيها قليلاً، ربما تكون المرة الأولى التي يشاهدها ولم يبت برأيٍ قاطعٍ في ذوق بنائها أو أثاثها، كان واضحًا لها تمامًا أنَّ هذه الفيلا تخصه من التاج، التاج يخص السلطان، ولا أحد يرسم تاجًا على بيته.

أشار إلى السيارات الصغيرة التي لا يزال الهنود يجلسون خلف مقاودها، حاول أن يقول شيئًا لكنها هي من تحدَّث، كان تقليدًا عاديًا،

لا تعرف سببه على وجه التحديد، لكنه ليس غريبًا بالنسبة لها، أنهت كلماتها ثم بدا كما لو أن أحدًا ذكّرها بالضحك، سقطت على الأرض واضعةً يدها على بطنها وهي تطلق ضحكاتٍ عنيفة وتشير له قائلةً بنفس هجته: "السلطان جاي يقبض عليك!"، لم يستطع إسكاتها، ولم يجد مفرًا من الضحك كذلك، رغم أن هاجسًا سيطر عليه بحضور أحد حراس من الخارج ليأمرهما بالخرس.

مر أسبوعٌ تقريبًا على هذا الموقف إلا أنّ القلق ما زال يعصف به، تجه إلى الشرفة محاذرًا أن يصدر صوتًا، الإضاءة الناعمة انسابت في الجو مثل فضةٍ صافية، كأن ستائر سميكةً لفّت الشمس وامتصتْ وهجها تاركةً تقليل جدًا ينساب منه، لم ينم، ومع هذا كان عقله متيقظًا كأن بطاريته مشحونة بالطاقة إلى نهايتها، وكان حريصًا على الحركة بحساب، لم يشغّل الراديو كما اعتاد في هذا التوقيت المبكر، وتسحّب إلى الشرفة محاذرًا أن يصدر صوتًا، وشد الستائر خلفه، أشرقتْ الشمسُ منذ ساعةٍ واحدةٍ على مسقط.

لم يفوّت فرصة رؤية المشهد من ربوة حي "روي"، ربوتهم التي تطل على شارعٍ واسع ينضي بدوره إلى شوارع أكثر اتساعًا تضيق أحيانا حتى تتحول إلى حاراتٍ متوازية، تتقاطعُ مع أخرى مكونةً ما يشبه فتش ثعابين، تمتزجُ رائحةُ الماضي المنبعثة من البيوتِ القديمة البيضاء، بالرائحة النفاذة للعمارات العصرية، الفندق القريب في الواجهة يعلن حضوره الثقيل، ثمة لمسةٌ روحية، تطلُ من الأرابيسك والخط الكوفي في واجهة المسجد القريب، كان طرفٌ يسيرٌ من كل شيء

يمتزج في واجهاتِ الفيلات القريبة، المنمنمات والعمدان الضخمة والنقوش تبدو وكأنها خرجت من جراب فنانٍ واحد.

فكّر في الدخولِ وإيقاظ زوينة النائمة في سريره، لا يعرف كيف انسحق أمام رغبتها القوية، تخيَّل أنّه سدٌّ في مواجهة نهرِها الهادر، انهارَ سدُّه فجأةً رغم كل شيء، كان خائفًا، خائفًا من أهلها، ومن الجيران الذين لا يشاهدهم إلا نادرًا، ومن الأبواب الموصدة المحيطةِ بمنزله، كان خائفًا من زملائهما في العمل، ومن أهلها، ومن السلطنة بأكملها، قالت زوينةُ: إنَّها لا تريد شيئًا منه سوى حضن طويل، انهارت مقاومته مع بكائها، خاصة مع حديثها عن شعورها بالإذلال، الأمر صعب، قال لها ـوهو يتلفت حوله بين مكاتب العملـ فعلى أحدهما الذهاب إلى بيت الآخر، لم يكن هناك أحدٌ في بيتها، أهلها نزلوا القاهرة في رحلتهم السنوية، وهي اعتذرت عن النزول معهم، بأن وراءها أعمالاً لا تستطيع تركها، كانت حجة خيالية ابتلعوها، لو غابت عامًا عن العمل لن يسأل عنها أحد، وكانت حجة عليه ابتلاعها كذلك.

حاصرته الأسئلة المُمضَّة، لو أراد الابتعاد عنها وكفى هل ستلاحقه؟ يعلمُ تمامًا أنّها لن تستطيع الضغط عليه، لكن الضرر سيلحقها، أليس كذلك؟! إنه لا يضمن ما يمكن أن يصدر عن امرأةٍ تشعر بالتجاهل، خاصة أنها فشلت ـللمرة الثانية التي تحضر فيها إلى بيتهـ في دفعه حتى للمسها، ربما يُرحِّلونَه إلى القاهرة لو اكتشفوا علاقتهما، العلاقة التي تبدو لها من طرفٍ واحد، لكنه لا يأبه، لن يجدَ مشكلةً في أن يحكي لأبيه، سيقسم له أنه لم يفعل شيئًا وأنهم ظلموه،

لكنه قد يلوم نفسه كذلك لأنه لم يستجب لها، ولم يظفر بشيء منها أو من عُمان.

كان عليهما أن يغادرا، إنها السابعةُ الآن ولا تزال نائمة، لم يشأ إيقاظها، بدت أقرب إلى شخص لا يريد الاستيقاظ، جفناها يبدوان أثقل من حجرين مثبتين على عينيها، لم يشأ مع كل هواجسه إيقاظها، والآن عليه أن يعيش لحظاتٍ من القلق حينما تحين لحظة خروجها من بيته إلى الشارع، يأمل في مغادرتها دون أن يلاحظها أحد، لو خطَّتْ قدمها في الشارع، لقال لنفسه، ستنتهي المشكلة، عادت إليه شجاعتُه، نافضًا عن رأسه كل الهواجس في تلك اللحظة، ولام نفسَه لأنه سمح لها بأن تأتي في سيارته، أنزلها قبل بيته بمائتي متر وسبقها حتى لا يلاحظهما أحد، الآن عليه أن ينقلها بسيارته، إلى أقرب مكان لبيتها، ومن هناك يمكنها قيادة سيارتها إلى العمل.

استيقظت زوينة مرتديةً ملابَسها كاملةً كالعادة، كان عليهما التحرك، وفكَّر أنهما سيكونان داخل السيارة هدفًا مكشوفًا للسكان، حينما يهبطان بها من تلك الربوة العالية سيبدوان وكأنهما يسقطان في شرك المدينة، المدينة تفتح فمها مثل حوت يونس لتبتلعهما، لم تكن مهتمة بهواجسه التي استمر في التصريح بها، دائمًا هي غير مهتمة، ودائمًا تهز كتفيها، اقترحتْ أن يلتقيا على بعد نصف كيلو من هنا، ينطلق هو بالسيارة إلى هناك وينتظرها، خرجا ووقعت عيناه على التاج المرسوم على باب الفيلا المواجهة، وفكَّر لماذا يبني السلطانُ فيلا في مكان غير مخصص للصفوة؟! لم يُتعِب ذهنه في البحث عن إجابة، وعاد قلبه

للعب دور كرة التنس، وحاول أن يبدو متماسكًا بينما زوينة تسير خلفه بخطوة، وهما يتجهان إلى السيارة المركونة بحذاء الرصيف خارج البيت، تجاهل النظر إلى الأبواب حوله، ولمحها بطرف عينه تنظر في جميع الاتجاهات، وسألها بصوت خفيض لماذا تفعل ذلك؟! لكنها لم ترد واستمرت في النظر حتى بعد تحركهما، ثم قالت إنها تعرف هواجسه، وأرادت أن تطمئنه، لا أحد ينظر إليهما، ويمكنها ركوب السيارة معه الآن، لا على بعد نصف كيلومتر، ركبا ثم فجأة والسيارة تتدحرج من الربوة مثل برميل نظرتْ إلى الخلف وخبطتْ يديها على ساقيها قائلة: "تخيل لو السلطان ظهر تاني؟!"، ثم انفجرتْ في الضحك.

فجأة شعر برغبة هائلة في القفز من السيارة وتركها تواجه مصيرها في أقرب إشارة، تمنى أن يكون الاصطدام مدويًا، بسيارة بنزين على سبيل المثال، لا يكفي الاصطدام فقط، بل الانفجار الهائل الذي سيبتلعها مع سيارته الصغيرة مخلفًا سحبًا هائلة من اللهب، وخطط كذلك لإنزالها في أقرب محطة، وليس بالقرب من بيتها، يمكنها أن ترجع إلى البيت في تاكسي، أو إلى العمل، ذلك لا يهم، قال لها ذلك بصوت عالٍ فهزت كتفيها، وبدأ ينتابه إحساس بكراهية هذه الحركة وبعدم فهمه لها، تلك الهزة يمكن فهمها بمعنيين متناقضين، أنها موافقة، أو أنها ترفض، تخلص من كل ذلك برفع صوت الراديو إلى آخره، فوضعتْ يديها على أذنيها لتُشعِرَه بتأنيب الضمير، ثم مدت يدها اليسرى لخفضه، كان مذيع النشرة يتحدث عن زيارة رفيعة لرئيس أوروبي، زيارة تاريخية لم تحدث منذ ثلاثين عامًا، مستفيضًا في شرح

طبيعة العلاقة بين السلطنة وبين الدولة الأوروبية، قطعَ في هذه اللحظة- الشارع بامتداد منطقة الغُبْرَة، ولاح له أول تقاطع، ورأى الإشارة حمراء من بعيد، وأمرَها بالاستعداد للنزول، ولم ينتظر رد فعلها، كان مشدودًا إلى عصا شرطي المرور المضيئة وهي توجهه إلى شارع آخر، كان أمرًا غريبًا لم يجرِ طوال السنوات الخمس التي قضاها في مسقط، إشارة العصا المضيئة واضحة، عليه الاتجاه يمينًا، بعد قليل من الانتظار أمام الإشارة الحمراء أدار المقود بقوة وربما بعنف واتجه يمينًا، مقررًا إنزال زوينة مع أول إشارة جديدة يصادفانها، ظهرت منطقة القُرْم ولاحت له أشجار السِدر على جانبي الطريق، هناك شيء يشده إلى تلك الشجرة، ربما قوة الشخصية، الجذع المتين القصير، الأوراق الكثيفة، ولاحظت زوينة أنه ينظر إلى تلك الأشجار، فبدأت تتحدث عن مزاياها، لم يكن في الحقيقة يستمع، كان صوتها يختلط بصوت مذيع الراديو ثم الأغاني التي تلت النشرة، غير أنها ضربت كفها في ساقه هاتفة: "بطّل شرود!"، واختبرته بسؤال عما كانت تتحدث عنه لكنه لم ينطق، ومع هذا عادت إلى الحديث عن الأشجار، عن السمر والعتم والغاف والزام، وكل الأشجار المعمِّرة، قالت إن عمر بعض هذه الأشجار يصل إلى قرن وبعضها إلى قرنٍ ونصف، بعضها يقع في الوديان والتلال والبعض الآخر في سلسلتي جبال الحجر الشرقي والغربي وظفار، سألته عن رأيه في الذهاب إلى هناك؟! لكنه لم يفكر سوى في دفعِها بقدمِه إلى الشارع.

ظهرت إشارةٌ جديدةٌ للتو، وكان هناك عسكري يمسك بعصا مضيئة ويأمره بالاتجاه يمينًا، للحظة خُيِّل إليه أنه نفسَ العسكري وأنها نفس العصا، وهذه المرة لم يتوقف، ووجد نفسه ينعطف بانسيابية، لم تكن هناك سيارةٌ أخرى في الشارع، يبدو أنَّ الجميع كانوا يعلمون بأمر الزيارة وقرروا عدم الخروج من بيوتهم، ربما قرأوا في الجرائد أو علموا من الراديو والتلفزيون بالطرق البديلة للمرور هذا اليوم.

لاحت له إشارةٌ ثالثةٌ ووجد نسخةً جديدة من العسكري تشير إلى اليمين، وكان الغضب يعلو داخله مع كل إشارة جديدة، لو كان يعلم ما سيجري لحصل على إجازة اليوم ولغيَّر مساره إلى قرية "السيفة" حيث لا شيء سوى الاستمتاع بالبحر وشيٍّ السمك، ظهرت الإشارة الرابعة والخامسة، ومن يمين إلى يمين، حتى بدا كأن شيئًا تغيَّر في رائحة الجو، شمَّ اليود فكان البحر، وصرخت زوينة من الدهشة الممتزجة بسعادةٍ ما، انتهى الطريقُ فجأةً وبدون تمهيد، انتهى بكثيرٍ من الرمال التي كانت تمتدُ في مرمي البصر لمئة مترٍ أو يزيد حتى الشاطئ، رأى المياه الصافية الجميلة، كان شيءٌ ما غامضٌ يحركه في هذه اللحظة، اختفى الغضب، وحلَّت مكانَه سكينةٌ لم يشعر بها منذ سنوات، فتحَ باب السيارة وأخرج كرسي البحر، وعددًا من الكتب، سمح ليدِها أن تمتد وتحيط بخاصرته، حاولت الالتصاق به بأكبر قدر من جسدها، ألقى الكرسي والكتب على الرمال بالقرب من البحر، ربما المياه زرقاء، وربما هي خضراء، ربما بحر العرب، وربما المحيط الهندي، ربما يرتدي ملابسَه وربما لا يرتديها، ربما تنظر زوينة، الممددة على الأرض،

للسماء وربما له، كانت قدماه تلامسان الماء ومع هذا كان يقطع المسافة إلى الربوة جريًا، دون أن يتزحزح ملليمتراتٍ عن الماء، وربما عن جسدها.

بدا لها الجبل من الوادي بالأشجار التي تحيط به، والبيوت المحفورة فيه، والطريق المتعرج الذي يبدأُ عند قدميها وينتهي في قمته، مثل الأماكن السحرية، سبقها عقلُها إلى مدخل الجبل وتخيلت زوجها يقف في انتظارها، وسألت نفسها: لماذا لم يهبط إليها؟! تمنت لو أنها تُخرج من جيبها حبات فاصوليا وتلقيها على الأرض، فترفعها الأغصان باتجاه القمة بسرعة خيالية بدلاً من ذلك الانتظار الطويل الصعب.

الرجال والنساء اليمنيون كانوا يَظهرون من مداخل الساحة الصخرية، ينشغلون بالتطلع إلى شعرها الأسود الفاحم، وثوبها الأزرق الذي ينتهي أسفل ركبتيها بقليل، ثم يركبون سيارة ربع نقل مكشوفة، تبدأ رحلتها بعد امتلائها، في الطريق المتعرج، مختفيةً خلف الأشجار.

شعرتْ بأنها غريبةٌ في هذا الجبل، غريبةٌ حتى ولو كان زوجُها يقف الآن في قمته، غريبةٌ حتى تلمس يده، وتشُم رائحة أنفاسه، كانت تفكر فيه على مدار شهورٍ طويلة وتتخيلُ نفسها تعتليه وتقحم نفسها

فيه، تعتليه وتلتهم شفتيه، ورقبته، ووجهه، تشمُ رائحةَ عرقه، وترجوه أن يهمس باسمها بالقرب من أذنها.

نظرتْ إلى أعلى مجددًا كأنما تتوقع رؤيته من مكانها على قمة الجبل يلوِّح لها، كانت مندهشةً لأنه استطاع أن يجعلها ترى المكان بكل تفاصيله، قبل أن تأتي إليه بشهورٍ طويلة، وصف لها في خطاباته الجبل وطريقه المتعرج وأشجاره وقروده، حكى لها عن المدرسين والطلاب وغرف المدرسة المحفورة في الجبل، ضحكتْ لأنها توقعت رؤية القرود بمجرد وصولها إلى هنا، وفكرت أنها ربما تراقبها من خلف الأشجار الآن، لكنها نفضت الفكرة عن رأسها.

غادرت السيارةُ الثانية منذ مجيئها، كانت تقف منذ ساعتين تقريبًا، شعرت بالتعب فجلست فوق حقيبةٍ من حقائبها الثلاث، زوجها أخبرها أنه سيحضر لاستقبالها، ربما يكون مريضًا، ولكنها تعرفه جيدًا، المرض لم يكن ليعوقه عن المجيء إليها، تعرف مدى لهفتِه لرؤيتها، فلماذا لم يأتِ؟! حاولت تخمين المكروه الذي أصابه، واجتاحَها القلقُ، وقررت أن تركبَ أول سيارةٍ تصعد الجبل، يمكنها بالأعلى سؤال الناس عن المدرسة، الأمرُ ليس صعبًا، فهي المدرسة الوحيدة في قرية "ماوية"، وزوجها يقيم في أحد فصولها.

ظهرت في مواجهتها سيارةٌ مكتظة، ولاحظت أول رجل يرتدي بنطلونًا وقميصًا منذ وصولها، اتجَّه إليها مباشرةً، وقال إنه ناظر المدرسة، ويعرف أنها المُدرِّسة الجديدة "زوجة المصري"، جاء

ليصطحبها إلى زوجها المريض، الذي لدغته بعوضةٌ فأصيب بالملاريا، حاول التهوينَ من الأمر لكن الذعر كسا ملامحها، تطلعت إلى وجهه، كان كما وصفه زوجها بالضبط، رأسٌ ضخمٌ للغاية، وجهٌ مدورٌ كأنه مرسومٌ بـ"برجل"، وشعرٌ مفروق في المنتصف، وفردتا شارب يفصلهما سنتيمتر، طمأنها أنه سيتحسن، وبدأ يتحدث عن نفسه، يسكن في تعز مع قبيلته، يقطع المسافة من هناك إلى الساحة الصخرية بسيارة "لادا" حمراء، أشار إليها، يركنها هنا لأنها لا تستطيع الصمود مئة متر لو أراد الصعود بها، لم تكن مهتمةً بما يقوله وكانت تفكر، بماذا يشعر زوجها بينما ينتظرهما في الأعلى، بالتأكيد لم يكن مشغولاً بشيء سوى برؤية وجهها، بالتأكيد يتابع سيارات ربع النقل المتعاقبة التي تصل إلى قمة الجبل، والرجال والنساء الذين يهبطون منها، لطالما تخيلته وهو ينام بمفرده في الغرفة الوحيدة التي خصصوها له بالمدرسة، الغرفة التي تضم سريرًا واحدًا مصنوعًا من جريد النخل، المربوط بحبال مجدولة من الليف.

كان الناظرْ يتحدثُ بدون توقفٍ، ولاحظت أنه ينظر إلى شفتيها بينما يتحدث، زوجها أصرَّ رغم مرضه على قطع المسافة من المدرسة إلى مدخل الجبل لينتظرها، رغم حرارته المرتفعة، حاول إقناعه بأن ينتظر في غرفته لكنه رفض، بل إنه كان يريد أن يأتي معه لولا أنّه تقيأ مرتين خلف الأشجار، انتقل الكلام إلى الأشجار، كلُ كلمةٍ كانت تسحب في نهايتها أخرى، كالمناديل التي تشدُّ بعضها إلى ما لا نهاية وهي تخرج من جرابِ ساحر، الأشجار تُشكّل مدرجات، مدرجات تبدأ من

قمة الجبل وتنتهي عند الوادي، عاد إلى زوجها -الذي لم يكن يعرف ما جرى- ولا لماذا ارتفعت حرارته بهذا الشكل ولا لماذا صبغ الأصفر وجهه، كل ما يشعر به دليل على لدغة بعوضة، خلعوا ملابسه وفتشوا جسده عن مكان اللدغة ولم يجدوا أثرها، انخفضت حرارته بعد أن حملوه إلى الوحدة الصحية لكنها عادت للارتفاع، "زوجك خايف من غضبك، وحاسس بالذنب بسبب التأخير"، أشار إلى صدره، قائلاً إنه أقنع زوجها بأنها ستتفهم، هزَّت رأسها موافقة، وسألته إن كان زوجها يعرف باغتيال السادات؟! فأومأ برأسه، كانت تعلم أنه يحتفظ في محفظته بصورتين، واحدةٍ لها، والأخرى للسادات.

حاولتْ رفع إحدى الحقائب إلى السيارة، لكنه وضع يده على يدها لتتركها، فكرت في أنها حركة عفوية غير أنه تأخر ثواني في سحبها، ثم إنَّه نظر مجددًا إلى شفتيها، ربما تكون هذه طريقته في النظر إلى الناس، لكنها تكره هذه الطريقة، وتنفر من أصحابها.

أصدرت السيارة أصواتًا مرعبة، بدا كما لو أنها لا تستطيع مواصلة التقدم، كان السائق يهدئ أحيانًا، بشكل مفاجئ فينقلب الركاب على بعضهم، وفي إحدى المرات طارتْ الزوجة إلى الخلف والتصقت مؤخرتُها بالناظر، مدَّ يده بسرعة ولفَّها حول صدرها وشدها إليه بقوة كأنه يريد منعها من السقوط على أرضية السيارة، ضحك وأخبرها أن كثيرًا من الحوادث تقع هنا، وحكى أنهم كانوا ينتظرون سيارةً في إحدى المرات في مدخل الجبل، وظهر السائق بدونها، فسألوه عنها وعن الركاب، فقال: "طاحوا.. ما فيه نصيب"، السائق حينما

يفشل في الصعود بالسيارة إلى الجبل في المطالع الصعبة يقفز، يقفز ويترك السيارة تتدحرج بركابها، يموت من يموت ويحيا من يحيا، كان السائقون يأتون إلى القرية للإبلاغ عما جرى، والسكان يخرجون لجمع الجثث أو لحمل المصابين.

تخيلت في هذه اللحظة أن السيارة الثانية التي سبقتهم بقليل وصلت إلى حيث يقف زوجها، رأته متحمسًا رغم ألمه، يسأل السائقَ عنها، يقول له إنها سيدةٌ بيضاء، ذات شعر أسود فاحم قصير، يخبره عن شامةٍ عند زاوية فمها اليسرى، وعن طولها المتوسط، وعن لون عينيها، واسمها، كانت تسبق المسافة إليه، لكنها في كل مرة كانت تعود إلى الواقع بعد توقف مفاجئ للسيارة والتصاق مؤخرتها بالناظر، كانت تذهب إلى قمة الجبل وترتد إلى جسد الناظر ككرة مطاطية طوال الطريق، حتى وصلت السيارة أخيرًا، وأشار الناظر إلى زوجها الذي يجلس على جذع شجرة "عرعر" مقطوعة، تطلعت إلى وجهه القَلِق، ثم رأت السعادة تومض في وجهه الذي بدا كمصباحٍ أصفر، شهقت حينما لسعتها حرارته حين وضعت يدها على جبهته، ينبغي أن يشكرا الناظر جيدًا، الرجل المحترم أصرَّ على الذهاب لإحضارها، قال زوجُها: رغم أنه لا يطيق الاستمرار دقيقةٍ زائدة في المدرسة، ضحك الناظر قائلاً إن هناك ما هو أهم من شكره، الحديث عن العمل فورًا، ولتكن البداية من تخفيف المناهج، يوصيها كما يوصي نفسه وبقية المدرسين بأن يحذفوا صفحة ويدرِّسوا صفحة، الطلاب لن يفلحوا، ولن يفعلوا شيئًا سوى العمل كسائقين، أو كقاطعي أشجار في الجبل، قال لها إنه غير

مقتنع بعملها كمُدَرسَة ألعاب، واتفق مع زوجها في وقتٍ سابق أن تعمل من الباطن كمُدرِّسَة دين، وفي نفس الوقت يمكنها مساعدته في العربي والحساب.

قبل أن يصلوا إلى المَدْرسة قال الناظر للزوجة إن رؤوس هؤلاء الطلاب لا تحتمل الكثير من المعلومات، يمكنها أن تتفتت كأحجار الرمل الهشة بمجرد سقوطها على الأرض، وهكذا باستطاعتها تحفيظهم نصف سور القرآن، النصف فقط، ولوهلةٍ تخيلت الزوجة أنه يقصد جزءًا من كل سورة مقررة، لكنه عوضًا عن الشرح أو إعادة الكلام بدأ يرتلُ سورة الإخلاص، قرأ الآية الأولى، وتجاهل الثانية، وقفز إلى الثالثة وتجاهل الرابعة، يمكن للطلاب أن يحفظوها هكذا، فهذا أفضل من حشو أدمغتهم بأشياء زيادة، أخذت عيناها في الاتساع كالدوائر التي تظهر عقب إلقاء حجر في نهر، وبدا أنه يستسلم قائلاً: "خلاص ممكن تحفظيهم الآيتين التانية والرابعة من نفس السورة".

كانت أبواب المنازل المحفورة في الصخر موصدة، يوصد السكان منازلهم بمجرد حلول الظلام، ولا يفتحونها حتى لو انهارت قمة الجبل، ترك هذا انطباعًا لديها بأن هذه القرية لا ترحب بأحد، يجب عليهم الإسراع؛ وصاح الناظر: اجتازوا المسافة المتبقية بسرعة، كان زوجها يسبقها بخطوةٍ بينما تضع أصابع يدها اليمنى بين ظهره وحزامه، وتمسك الحقيبة الثالثة الصغيرة بيدها اليسرى، أما الناظر فكان يسير على بعد خطوتين منهما، وكانت تفكر في أنه يحملق في مؤخرتها المكتنزة، وشعرت بالارتياح بعد أن فكرت في أن الظلام لن يساعده.

أغلق زوجها باب المدرسة خلفهم وأمسك بيدها فشعرت بأن حرارته تنتقل إلى جسدها وتشويها، أشعل الناظر مصباحًا زيتيًا بالكاد تبيَّنت على ضوئه جزءًا من فناء المدرسة ولاحظتْ أن أبواب الفصول المحفورة في الجبل لم تكن سوى ستائر من "المشمع" السميك لا تصمد في مواجهة الهواء.

اجتاز ثلاثتهم أحد الأبواب وقال الناظر: إن هذه غرفتهما وبها سريران من الجريد، لم يكن هناك سوى سرير واحد حتى أسبوع مضى، لكنه حصل على موافقة وزارة التربية والتعليم على شراء آخر لهما، إذ أن مساحة السرير الواحد لا تكفيهما معًا، ثم بدأ يخبرها بما يشبه لائحة محاذير، زوجها يعرفها جيدًا، أن تجمع ملابسها الداخلية إذا اضطرت لنشرها في الفناء ليلاً بحيث لا يراها الطلاب، أو المدرسون المخليون صباحًا، عليها أن تبقيهم على مسافةٍ من هذا الفصل، صاح: "آسف الغرفة"، وأن تتعامل مع الجميع بحساب، وتعود إليه هو شخصيًا في كل شيء، حذَّرها كذلك من البعوض، لو تعرضت للسعةٍ واحدةٍ ستصاب بالملاريا، حذَّرها من العقارب والثعابين وسألها إن كانت قد أحضرت معها حذاءً برقبةٍ طويلة؟! لم تكن في حاجةٍ إلى تحذيراته، اكتسبتْ خبرةً طويلة من خطابات زوجها، كان الناظر يتحدث بلا توقف وبدا كأنه سيستهلك الليل بطوله، حتى قالت إن زوجها متعب، يمكنه الإكمال غدًا، لكنه بما يشبه الصياح تحدث عن اضطراره للمبيت هنا، فلن يجد سيارة، الحياة لا تعود إلى طبيعتها إلا مع الشروق، حملت كلماته تأنيبًا واضحًا لها، هو الذي غيَّر ناموسه لأجلها، وحمل حقيبتيها

الثقيلتين، ولم يكن زوجُها قادرًا على التفوه؛ ألجمته الحرارة، وانتظر ما ستُسفرُ عنه المناقشة بينها وبين الناظر الذي كان يقول إنه يريد فقط مجرد ملاءة ليفرشها على الأرض في أي فصل، وينام عليها.

كان الهواء يوجِّه الإضاءة من جهة إلى أخرى، يخترق المصباح الزجاجي ويحرك الفتيل، الذي ينطفئ أحيانًا ثم يعود إلى الاشتعال من تلقاء نفسه، إذ أن الفتيل مبللٌ بالكيروسين، وهناك شرارةٌ دائمًا، شرارةٌ في حجم خردلة تتكفل بإعادة إشعاله، لم تكن الزوجة ترى جيدًا ما في الحقيبة المفتوحة على الأرض، لكنها وصلت أخيرًا إلى ملاءتين، ومدَّت يدها إلى الناظر بهما فأخذهما واتجه إلى الخارج.

لم يترك الناظر مُدَرِّسًا دون أن يخبره عن الطريقة القاسية التي عاملته بها، مقاطعتها له، وإفصاحها عن رغبتها علانيةً في عدم وجوده، قال للجميع إنها فعلت ذلك معه رغم أنه ذهب خصيصًا ليحضرها إلى زوجها، وأخبرهم عن حقيبتيها الثقيلتين اللتين هُيئ له من فرط ثقلهما أنهما ممتلئتان بتماثيل أو جماجم، كل المدرسين الذين كانوا ودودين جدًا معها في بدايات التعارف أخبروها بالأمر، وقالوا لها إنه طيب القلب في النهاية، وبالتأكيد سيسامحها، لم تشعر بالذنب، ومع هذا أوقفته في فناء المدرسة لتعتذر، وكانت مندهشة جدًا لأنه ابتسم بشكل بدا لها مبالغًا فيه وقال إنه غير مستاء منها إطلاقًا، وشكرته وطلبت منه أن يتناول الغداء معهما في اليوم الذي يحدده، ولكنها في هذه اللحظة انتبهت مجددًا إلى أنه ينظر لشفتيها بينما تتحدث، شيء ما انفجر في عقلها يقول لها بدون مواربةٍ إنَّ هذا الرجل يفكر فيها كأنثى، كيف لم تلحظ ذلك؟!

تذكرت نظراته السابقة إلى شفتيها، وربما إلى صدرها ومؤخرتها، تذكرت وضعه يده على صدرها ليمنعها من السقوط في السيارة، ربما كانت حجة ليلمسها، كانت مُشوشةً في الساحة الصخرية وفي الطريق المتعرج، ولكنها هنا في المدرسة وفي هذا الجو الصحو تستطيع تلقي الإشارة جيدًا، لقد وصلتها، لم تصلها فقط وإنما زلزلتها، ستقضي عامًا على الأقل، هنا مع ذلك الرجل الذي يرغب فيها.

فكرت في إخبار زوجها بهواجسها، لكنها تراجعت خوفًا من إضافة عبء آخر إلى مرضه، شكرها الناظرُ على دعوتها، وقال: "ممكن بعد أسبوع أو اتنين"، ثم اكتسى صوتُه بحماسٍ بدا لها غير مبرر، قائلاً إنّ زوجَها سيكون في حالة صحيةٍ أفضل بكل تأكيد.

لم يتحسن زوجها، واقترحت أن يذهبا إلى مستشفى تعز، حجزوه لبعض الوقت ومنحوه دواءً، كانت تساعده على رفع قدميه باتجاه السقف، والبقاء على ذلك الوضع أطول وقتٍ ممكنٍ حتى يصلَ الدمُ إلى رأسه، كان يُحملق فيها من مكانه بينما تصنع من العلب البلاستيكية مصايد للعقارب والثعابين وتملؤها بالماء، ثماني عُلبٍ بالضبط وضعتها تحت أرجُل السريرين، أخبرها أنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالاطمئنان والأمان، كان يفكر دائمًا طوال الليل أن الزواحف ستصعد إليه وتلدغه، قد ينهض أحيانًا حينما يهاجمه كابوس لينظر تحت سريره متوقعًا أن يشاهد جيش عقارب وثعابين، بل إنه كان ينام أحيانًا مرتديًا حذاءه الجلدي ذا الرقبة، كما كان يرتدي القفازين في عز حرارة الصيف.

نظر إليها بحبٍ جارف، في الوقت الذي شعرت بتأنيب الضمير بمجرد أنها لم تخبره بما جرى مع الناظرِ أمس، كانت تسير في الممر أمام باب غرفته، وخرج فجأةً واصطدم بها وانغرز رأسه في صدرها، ثم اعتذر لها عن الحادثة غير المقصودة، لو أقسم لها لن تصدق أن قفزته المفاجئة ليست مقصودة، لا تزالُ أنفاسه التي تفوح منها رائحة القاتْ تلفحُها، رأتْ أسنانه البُنيَّة التي تشبه سور الأخشاب غير المنتظمة أمام الفصول، ورأت شعرًا رماديًا غامقًا متعرجًا يخرج من أنفه وأذنيه، لم يستغرق الاصطدام أكثر من لحظة رأت فيها كل ذلك، كأن رأسها تحول إلى عين ضخمة ترى أدق الأشياء، وجهُه بدا لها شبيهًا بجبل ذي فتحات لكهوفٍ مخيفة، في هذه اللحظة كانت تفكر في الاعتذار له عن دعوتها، لكنها لم تستطع.

بعد أيام تحسن زوجها بشكل كبير، عرف بدعوتها للناظر، فأبدى حماسًا، حرصتْ على تجهيز الطعام بمجرد انصراف التلاميذ، كان هناك وقتٌ كبير يفصلهم عن الغروب، إلا أنها لاحظت أن الناظر يتلكأ، دخل الحمام وغاب طويلاً، ثم فرد حصيرةً في منتصف الفناء وبدأ يصلي، وكان يتأخر بين كل ركعةٍ وأخرى كثيرًا، وكانت تضطر إلى تسخين الطعام، ثم جاء إليهما حيث يجلسان أخيرًا وقال إنه يشعر بتوعك، وإنه سيضطر إلى المبيت اليوم، زوجته ميتةٌ وأبناؤه اعتادوا على غيابه أحيانًا، فكرت في سؤاله عن السور التي قرأها في صلاته، هل قرأ سورة البقرة أو النساء أو آل عمران؟! كانت تتخيل أنه يقف ليتمتم بكلماتٍ جوفاء لا رابط بينها، ربما يكرر آية واحدة من سورة الفاتحة أو الإخلاص إلى ما لا نهاية.

بدا زوجها سعيدًا ومرحّبًا، وقال كلامًا كثيرًا عن أفضال الناظر عليه وعليها، يكفي ما فعله بعد وصولها. الملاريا كانت تنهش جسده. لعلها تسامحه الآن. وردت الزوجة إنها تسامحه بكل تأكيد. أطلق الزوج ضحكاتٍ عالية وهو يحكي عن أمورٍ كانت تحدث بينهما في بداية زواجهما، بينما تجاهلت هي النظر إلى عيني الناظر خوفًا من رؤية نظرةٍ جديدةٍ إلى شفتيها، منحته ملاءة وغطاء وتركته مع زوجها الذي عاد إلى غرفتهما في وقت متأخر للغاية.

كان زوجها يشع في الظلام من فرط الإثارة. لفحها وهجه بمجرد خطوه في الغرفة، ولم تفهم كيف يشعر بذلك رغم أنه قضى ساعات بصحبة هذا الكائن المخيف. وفكرت أن ذلك الإحساس المفاجئ يعني شفاءه بالكامل، لم تبال بانتقال الملاريا إليها، رغم تحذيرات الطبيب. وجدت نفسها مشدودة إليه ناسية تمامًا أي شيء يتعلق بالناظر، خاصة أنها وضعت حجرًا ضخمًا على نهاية الستارة المشمع، بشكل يجعل تحركها مستحيلاً.

قفزتْ فوق زوجها وأطفأتْ اللمبة بنفخة في فوهتها إلا أنها عادت لتشتعل فضحكا، ثم أطفأتها بنفخة أقوى، قبّلته في كل مكانٍ بجسده، حاول كثيرًا شدها لتصبح أسفله إلا أن مقاومتها كانت كبيرة، كانت تريد البقاء فوقه أطول وقت ممكن، ولم تخش في هذه اللحظة أن يكون صوتها مسموعًا، كانت تنطق باسمه وينطق باسمها، كانت تدعوه إلى دخولها، ويقول لها إنه يريد أن يذهب إلى أبعد نقطة منها، كانا يفكران في أنهما سيستمران إلى ما لا نهاية، غير أن صرخةً قريبة جدًا منهما

أشعرتهما بالفزع، صرخة أتبعتها مجموعةُ صرخاتٍ أخرى تعرفا من خلالها على الناظر، ارتديا ملابسهما بسرعة وبارتباك، واختطف الزوج علبة الثقاب من أسفل الوسادة، وأشعل عودًا تبيَّنا على ضوئه وجه الناظر المتألم ويده التي تشير إلى ما بين فخذيه، لم يكن ثمة شيء يظهر منه، فقد كان يلف نفسه بملاءة، لكن الواضح جدًا لهما كان الدموع التي تنهمر من أسفل نظارته، فَهِما من بين كلماته المتألمة أن عقربا لدغه وخمَّنا كذلك أن اللدغة في خصيتيه، قال إن ذلك حدث في أثناء تبوله، بينما فكرتْ الزوجةُ في أنه كان يستمني بالقرب منهما.

أشعل الزوجُ عودَ ثقابٍ آخر، وألقاه على الفتيل، ثم طلب منها أن تنتظرهما في الفناء، ساعده على ارتداء بنطلونه القماش، كان سرواله مبتلاً، وخصيتاه متورمتان، وكان يصرخ، حمله الزوجُ بسرعةٍ وجرى به إلى الخارج، طالبًا منها أن تتبعهما بالمصباح، كان يجري ويصيح على الجيران لكن الأبواب ظلَّت موصدة، فكر في معجزة قد تحدث بظهور سيارة في بداية الطريق المنحدر، كان الناظر ينتحب، والزوجة تنظر إليه بخوف، بينما لم يكن الزوج يفكر سوى في الجسد الضخم الذي يحمله، قطعا أمتارًا باتجاه الوادي وكان على الزوج أن ينتبه، خوفًا من سقوطٍ مفاجئ في ذلك المنحدر، ثم فجأةً أوقعت الزوجة المصباح فانطفأ، ومدَّت يدها لتحضره، وفي هذه اللحظة سمعوا أصواتًا غريبة، ثم تبينوا أنها صيحات القرود مختلطة بحركة الأغصان والأوراق الجنونية، ثم أصابتهم دفقاتٌ متتابعةٌ من الأحجار، وهتف الزوجُ "القرود!".

أنزل الناظرَ على الأرض، وصاح فيهما أن يتجها معه إلى صف الأشجار للاحتماء بالجذوع حتى تتوقف القرود عن رجمهم، مدَّت يدها نحو زوجها إلا أنها شعرت بأن الكف التي أمسكتها غليظة، وجفلت، وسحبتها متحركةً خطوتين إلى الخلف، وفي هذه اللحظة اختلّ توازنُها، وشعرت أنها تسقط من الجبل، وصرخت صرخاتٍ متتالية، واصطدمت بشجرةٍ واجتاحها الألم حينما اخترقت الأغصان ثوبها ومزقته متجهة إلى لحمها، لكن الأغصان كانت رفيقةً بها في النهاية، حيث حملتها كالأيدي الحانية وأنزلتها إلى كومة قشٍ ضخمةٍ في المدرج التالي من الجبل، صرخ زوجها باسمها، ثم ظهر ممسكًا بعود ثقاب مشتعل، ومن خلفه الناظر، انتبهت في هذه اللحظة إلى أن نهديها يقفزان خارج ثوبها الممزق، ورأت الناظر يشيح بوجهه وقد استولى عليه ألمُ اللدغة ويتقدم منها ببطءٍ وهو يمدُ يدَه إليها بقميصه، كانت مرتبكة، ولكنها أخذت القميص، ولفَّت به نصفها العلوي، ثم اجتاحتها رائحة الناظر، شعرت أنها تلتصق بصدرها وتنتقل عبر مسامها إلى جوفها، لم تفكر في آلامها ولا في التشوش الذي تراه في عيني زوجها، ولكن في أنها صارت أسيرةً للناظر ولرائحته، وفي أنها لا يكفيها التخلص من القميص لتقضي على الرائحة، وفي أنها بحاجةٍ إلى إراقةِ الماء على جسدها وربما إلى نزع جلدها لو تسنى لها ذلك، أرادت أن تسأل زوجها لماذا تركه يفعل ذلك، لماذا لم يقفز نحوها ويغطيها بملابسه أو حتى بجسده، لكنها وجدته هو والناظر يديران وجهيهما باتجاه

الأشجار التي بدأت أغصانها وأوراقها تهتز بعنف، وفكرت أن جو جديدة بانتظارهم في مواجهة القرود.

وجده العقيدُ نائمًا أسفل شجرته المفضلة. فأيقظه بقدمه. أشار العقيد إلى ثعبان كان يتحرك فوق جذع الشجرة مختفيًا وسط الأوراق الكثيفة.

في مكتب العقيد، سيطر القلقُ على الجندي النحيف الجائع مهترئ البنطلون حينما تذكر المشهد. أصدرت عظامه أصوات قرقعة مخيفةٍ من أثر النوم على الأرض، كأصوات منزلٍ قديم على وشك الانهيار. لمح الجندي عنكبوتًا يتحرك بخفة على الحائط خلف العقيد، الذي يجلس متصفحًا عددًا قديمًا من جريدة. ثم اختفى قلقه وحلت بديلاً عنه رغبةٌ في الضحك، تخيَّل العنكبوت يقفز على رأس العقيد ويدخل فمه، تخيله يتقافز بفزع، كان الضحك يملأ خزانًا وهميًا داخله. وبدأ يطفح منه، متسربًا إلى شفتيه، فجزَّ على أسنانه. صانعًا سدًا يحجز الضحك خلفه، ولكي يغير تفكيره نظر إلى مروحة السقف التي تهدر مثل مروحة هليكوبتر، وتخيل الحجرة تطير في سماء المعسكر. قبل أن تنهار جدرانها وأرضيتها وتترنح، وكان العقيد يصرخ، ثم يسقط مثل صخرةٍ كبيرةٍ

مكوَّمًا فى أرض الطابور، بينما يهبط هو مثل ريشة يتابعها الضباط والجنود لفترة، يهرولون تجاهه ثم يمسكه أحدهم ببساطة مساعدًا إياه على الهبوط، تدفق الضحك محاولاً أن يفتح لنفسه مجالاً فى أكثر منطقةٍ هشاشة فى جسد الجندي، وبالتالي عوضًا عن الضحك انفجرتْ منه ضرطة قويةٌ رجَّت الحجرةَ الصغيرة كما ترجُ قذيفةٌ غرفةً أسمنتية مصمتة، ثم انسحب الضحك وحلَّت موجاتٌ متلاحقةٌ من الذعر، حاول إطفاءها بالصياح: "آسف يا افندم"، والعقيد أزاح الجريدة جانبًا للحظات ناظرًا إليه، قبل أن يعود لتصفحها، شمَّ الجنديُ رائحةً كريهة وقال لنفسه إنه إذا كان العقيد قد سامحه على الصوت فربما لن يسامحه على الرائحة، وأزاح يده بخفة من جانبه حيث يقف "انتباه" محركًا إياها كالمروحة خلف مؤخرته.

وقف العقيد فجأة، فعاد الجندي إلى وضع الانتباه وشعر بقلق كبير، في المرة الأخيرة عاقبه العقيد بكنسِ ملعبِ المعسكر الرملي، وبخلاف الأوراق التي جمعها كان عليه أن ينخل الرمل بين أصابعه مستخلصًا الأحجار الصغيرة، وأغطية زجاجات المياه وعلب المياه الغازية، وملاعقِ الآيس كريم، دار العقيدُ حول المكتب محاذرًا أن يحتك كرشه الضخم الذى يشبه جرنَ قمح بحواف الزجاج، ثم وقف فى مواجهة الجندي الذى كان يستمع إلى أنفاسه العميقة المنتظمة التي تشير إلى أنه بصدد الدخول في بيات شتوي طويل، كان بنطلون العقيد مفكوكًا، فأعطى للجندي إشارةَ البدء، بنظرةٍ من رأسه إلى المنطقة المفكوكة، وعرف الجندي في تلك اللحظة أن العقيد لم يشم الرائحة

وبحماسٍ بالغ التقط الإشارة وأمسك بطرفي البنطلون، ثم بدأ فى تجميع قواه بكاملها ودفعها إلى ساعديه، محاولاً بقدر استطاعته أن ينجز الأمر من المرة الأولى، ولكنه فشل، وكان العقيدُ يحاول مساعدته مُخلِصًا بشفط أرطال الدهون في مخزن سري بالقرب من عموده الفقري، ونجح الجندي تلك المرة غير أنه تعثَّر في وقفته وسقط فوق ركبتيه، كان يفكر من الذي يساعد العقيد على ربط بنطلونه في البيت؟! هل تقوى زوجته على هذا؟! أم أنها تستدعي أحدًا آخر؟! ربما ابنه وربما أحد الجيران؟!

فكر أن هذه آخر لقطة مهمة في يومه التافه، الذي يشبه أيامًا تافهة كثيرة أخرى، كان يجب أن يكون سعيدًا لأن العقيد يكلفه بأمورٍ أخرى غير حمل السلاح، إلا أنَّه تمنَّى أن يحمله ولو لمرةٍ وحيدة، حتى يخبر أصدقاءه في حواري إمبابة عن بطولاته، كان يختار بندقية قناص في لعبة الحرب، ولديه استعدادٌ لأن يتنازل الآن ويحمل بندقية عادية، المهم هو أن يحملها، أخبره رفاق العنبر بأنهم لا يستلمون رصاصًا، وإنما مجرد أمشاط خالية، ومع هذا كان يراقب قبضات أيديهم على البنادق بنوع من التقدير، ويتخيل نفسه واضعًا إصبعه على الزناد، كما يفعل الأبطالُ في ملصقات السينما، في الصباح استدعاه العقيد، مع ثلاثة جنود آخرين، كانت هناك مهمةٌ لهم جميعًا، كان ينتظر من العقيد أن يشير إليه بالذات، أن يقول للجنود إنهم تحت قيادته، تحت قيادة هذا الجندي الحكيم، ولكنه أشار إليهم جميعًا بحركاتٍ متتابعةٍ من أصابعه كأنه يهشُّهم كالذباب إلى الخارج.

ساروا في الصحراء كيلومترات حتى وصلوا إلى الموقع المحدد، فكّر الجندي أنّها مهمة سهلة وتافهة كالعادة، فها هي سيارة النقل الضخمة لا تحمل بداخلها سوى تابوتٍ واحد، وعليهم أن يحملوه، اثنان في المقدمة ومثلهما في المؤخرة، وسط ممرات الأسلاك إلى داخل مخزن السلاح، الأسلاك تُذكّره بلعبة الحرب، وتبدو له شبيهةً بجحر ثعابين في دورانها وتقاطعاتها الكثيرة، يفكر في أنّهم لن يحتاجوا سوى دقائق للوصول إلى المخزن، ثم بإمكانه أن يتركهم ليذهب وينام تحت شجرة الجميز المفضلة.

لم تكن هناك تعليماتٌ من سائق السيارة، ولا من جندي التأمين، قفز اثنان منهم إلى أعلى فيما بقي هو مع الرابع، وبدأ الاثنان بالأعلى في دفع التابوت باتجاههما، ثم صرخ أحدهما فجأةً: "مستحيل"، السائق حذّرهم من التأخير، فعادوا إلى العمل، ولمحَ الجندي ورقة الإعلان عن محتويات التابوت "٩٨٠ ك"، فكّر أن كلاً منهم عليه أن يحمل ربع طنٍ تقريبًا، وربما تكون هذه بطولته الخاصة، بالتأكيد اختاره العقيد لهذه المهمة، وإلا لماذا أرسل في طلبه من العنبر؟! كان يمكنه تكليف شخص آخر بدلاً منه، وهكذا شعر في هذه اللحظة بحبٍ جارفٍ تجاهه، وقال لنفسه إنّ العقيد يشركه في حروبٍ خاصة، حروبٌ تبدو له فاتنة، ليس مهمًا أن يحمل بندقية، وليس مهمًا أن يواجه أعداء، طالما يكلفونه بتلك المهام الخاصة، المهام التي لا يُكلّف بها سوى الأبطال.

استغرقت الخطوة الأولى منهم حوالي الساعة، صرخ خلالها السائق فيهم عشرات المرات، مشبّهًا إياهم بالنساء القحاب، تحرك الأربعة،

والاثنان في الخلفية -كما فكر الجندي- كانا ماكرين للغاية، فقد فطنا إلى أن هناك مسافة سنتيمترات خالية بين علب الذخيرة وخشب التابوت من الداخل، وهكذا رفعا أيديهما قليلاً إلى أعلى فتحركت جميع العلب بالداخل باتجاه الاثنين في المقدمة، وشعر الجندي فجأة أن جبلاً انزلق من مكانه وحطّ فوق كتفه، وأن حريقًا انتشر في عظام الكتف، كما تصلبت رقبته لثوانٍ قبل أن يطالها الحريق، حاول أن يتحدث آمرًا الاثنين في الخلف بإعادة أيديهم إلى المستوى العادي، غير أنه لم ينطق، وسار مدفوعًا من الخلف مع زميله حوالي ثلاث خطوات، ثم اكتشف في هذه اللحظة أنه لم يعد بإمكانهم التراجع، فقد صاروا في قلب أحد ممرات الأسلاك، التي تكفي بالكاد لعبور هذا التابوت ومعه الجنديان الملتصقان في الأمام والآخران الأكثر تماسكًا في الخلف، ثم فكّر الجندي في أن العقيد أراد أن يقول له إن هناك أشياء أكثر ثقلاً منه هو شخصيًا، كان يريد أن يصرخ في هذه اللحظة مؤكدًا للعقيد أنه يصدقه، أنه يصدق أنه في وزن ريشة، وأنه على استعدادٍ ليعترف بهذا أمام الجميع لو أراد، راجيًا إياه أن يخلصه من هول الموقف، كانت عظامه تتحرك من مكانها، وتخيَّل كالعادة أنّها على وشك الانهيار ليسقط كومة عظام ولحم داخل بنطلونه، ولم يُعنْهُ رفاقُ إمبابة الذين قفزوا في هذه اللحظة إلى عقله، وقرر فجأة الاستسلام، وترك التابوت يسقط فوقه، أو بتعبيرٍ أدق يدفنه، شكّل زميله من الأمام والاثنان من الخلف مثلثًا رأسه زاوية التابوت اليمنى التي انغرست في ذراع الجندي وشقّتها، وحينما شاهد الدم عرف أن هذا قد يكون خلاصه، أولاً من السائق المتذمر، وثانيًا

من العقيد، ازداد الألم، ولم يميز ما يقوله زملاؤه في البداية، غير أنه عرف أن الأمر لم ينته، لم يمت، وهذا معناه بالنسبة للسائق أنه سيكمل المهمة، لكنه كان رحيمًا بهم هذه المرة، تركهم يفتحون غطاء التابوت فظهرت أسفله مئات من علب الذخيرة، هذه الذخيرةُ تكفي لشنِّ حرب، فكر الجندي: فلماذا يمنحونهم أمشاطًا خالية؟! نسي بطولاته الخاصة وحروبه الفاتنة تمامًا في تلك اللحظة.

كان على كل منهم أن يُشبّك يديه أمام صدره والسائق ومعه جندي التأمين يضعان فوقهما مجموعةً من العلب، وضع السائقُ على يديه عشر عُلب، فطلب المزيد، وبالغ السائق واضعًا مثلها، وشعر الجندي بأن الجاذبية تسحبه تمهيدًا لسحقه في مركز الأرض، كان يعبر من ممرٍ إلى ممر، حتى يصل بعد دقيقة ونصف بالضبط إلى قلب المخزن، وهناك يكوِّمون العلب بعناية في مكانٍ أشار إليه أمين المخزن، احتاجت المهمة إلى أكثر من ساعة، بعدها كان عليهم أن يَمْثُلوا أمام العقيد، الذي صرف الجميع ما عدا هو، كان يفكِّر في أنه بالتأكيد لديه عيونٌ، وهناك من نقل إليه ما جرى، وإذا كان السائقُ ظالمًا فقد ينصف العقيد بطولته تلك المرة، وقف أمامه حريصًا على أن يظهر تلك النظرة الصارمة في وجهه، لكنه فوجئ بالعقيد يسأله لماذا تبدو ملامحه بكل هذا الغباء؟! كان الجندي أيضًا حريصًا على ترك الدم المتجلط بامتداد يده اليمنى يظهر من مَزق الكُم، لقد كان مَزقا خفيفًا لكنه شدَّه بأسنانه وهو في الطريق إلى هنا ليصبح ضعفَ مساحته، لمدة ربع الساعة كان العقيد يتجشأ، مقسمًا نظراتِه بينه وبين طبقٍ به ثمار طماطم، يبتلعُها واحدةً

واحدة، قبل أن يقول للجندي إنه يريده أن يحرس الشجرة، أن يعتبرها مسؤوليته في الحياة. لا يسمح لأحد بالاقتراب منها، قال العقيدُ أيضًا إنها لو نقصتْ ورقةً واحدة فهذا يعني نهايته، عليه أن يحرسها من البشر والحيوانات والطيور، ولو أنه عبَّر في فترة حراسته التي ستبدأ الآن، فوجد شيئًا مخالفًا فإنه لن يرحمه، استمع إليه الجندي باندهاش، بينما فكر في نفس الوقت أن جسد العقيد يتمدد بالعرض، ثم دار على كعبيه مغادرًا المكتب.

نظر إلى شجرة الجميز، وخيل إليه أنه يراها للمرة الأولى، وتساءل لماذا فكر العقيد في عقابه بتلك الطريقة؟ أيكون هذا عقابًا أصلاً وهو يعلم تمامًا مدى محبته للشجرة، ومهما حدث فلن يشعر بالضيق أو الضجر أو التعب في خدمتها؟ لم يكن هذا عقابًا كتنظيف المراحيض أو كنس الملعب أو مسح قاعة الطعام الضخمة، كان عليه أن يصمد حتى لا يرى نظرات التشفي في عيني العقيد، كما أنه لن يخبر زملاءه بالأمر، لا داعي لذلك، ولكنه فكر في أن هناك داعيًا على ما يبدو، لأنه إذا لم يخبرهم سيأتون كالعادة ليجلسوا أسفلها، للنوم ربما، أو للعب "السِيجة" أو للتسامر، فكّر أيضًا في الثعبان الذي رآه يختفي وسط الأوراق، ليس عليه أن يقلق ما دام سيبقى مستيقظًا، بدا له أن العقيد ربما يخشى هذه الشجرة المواجهة لمكتبه، ربما يرى شبحًا قريبًا منها وهو ينظر إليها من خلف شباكه، زملاؤه يتحدثون عن وجود أشباح تمرح حولهم، وربما يستريح أحدها تحت هذه الشجرة. اجتاحه الذعر، فقد تذكر أنه يقضي معظم وقته نائمًا أسفلها.

الوقت لا يزال نهارًا، رفع كُمَّه ليداري المَزق، ثم حكَّ إظفره بالجلد محاولاً إزالة طبقة الدم المتجلط غير أنه شعر بالألم فتوقف، شدَّ ظهره، ووقف "انتباه" أسفل الشجرة، ثم دار حولها أكثر من مرة، وقال لنفسه إنه ينبغي ألا يرتكب خطأ، حتى لو كان صغيرًا، ثم فكَّر أن العقيد لو أراد معاقبته بشكلٍ قوي لجعله ينزحُ الطرنشات، عليه أن يفكر بشكلٍ غير تقليدي، أن العقيد لا يريد أن يفصح عن مشاعره، دائمًا يريد أن يبدو قاسيًا، بالتأكيد يمتلك أرطالاً من القسوةِ في شحمه، لقد أراد أن يكرمه هو دون بقية الجنود، إنه يعلم أنه جنديٌ مميز، وقد أراد أن يمنحَه شيئًا مميزًا، فهل هذا حقيقي أم أنه يهذي؟! هل هو غبيٌ كما أخبره العقيد أكثر من مرة؟! لا، إنَّه لا يهذي، والعقيد يحترمه وإلا لماذا يستمر في تكليفه بالمهمة تلو المهمة؟! هبَّت نسماتُ هواءٍ لطيفة، حاملةً إليه رائحة أوراق الجميزة، وثمارها الخضراء النيئة المميزة، ثم قرر في هذه اللحظة أن يُسقط واحدةً منها، طلبت منه جدته، ذات مرة إحضار جميزة خضراء، كانت هناك بثور فى ذراع إحدى قريباتهم، والجميزة الخضراء بها مادةٌ بيضاء كاللبن، قادرةٌ على كنس البثور من مكانها كالمقشة، هرَول إلى الجميزة العتيقة في شارع قريب، بدا أن هناك مشكلة، فهو لم يتسلق جميزة قبل ذلك، واقتلاع الجميز الأخضر بإلقاء الأحجار عليه صعب، بعكس الثمر الطيب، اقترح أحد أقرانه أن يصعد هو كما يفعل، ولكنه رفض، قرر فى هذه اللحظة ولأول مرة فى حياته تسلق الجميزة، ثم بدأ رحلة الصعود، كان الأمر مقلقًا فى البداية، لكنه سار بسلاسة، وصولاً إلى الأفرع العليا التى اهتزت فطيَّرت الغربان

صانعةً سحابةً سوداء فوق الشجرة، غير أن مشكلةً ضخمةً حلّت، أحد أقرانه صاح "أبوك في الطريق"، ارتعد فى مكانه، ونظر إلى الأسفل ورآه قادمًا وسحابة دخان السيجارة تسبقه، أبوه يعرف أقرانه وقرر الوقوف معهم قليلاً أسفل الشجرة، وبدأ يسألهم عن آبائهم، كان يعرف أهل المنطقة بأكملها، ورفاقه بدوا مرحِين معه على غير العادة، ويبدو أنهم بالغوا فى النظر إلى الأرض، لتشتيت انتباهه عما يدور في السماء، هيأتْ لهم عقولهم الصغيرة أن هذه هي الطريقة المثلى لخداعه، كان يرتعد في مكانه محاذرًا ألا يهز فروع الشجرة، وبعد ثوان من السكينة حطَّ غرابٌ شجاعٌ بالقرب منه، وفكّر في الغراب عليه وطوحَّه ليطير سادًا الثغرة التي كانت تسقط منها الشمس فى سحابة الغربان.

استغرقته الذكرى ثواني من الشرود، وأفاق منها حينما سقط شيءٌ لزجٌ ثقيلٌ على أنفه وفمه، تبيَّن أنه غائط غراب، وشعر بالقرف البالغ، ومسح فمه بسرعة، ثم أحضر مجموعة من الأحجار الصغيرة وفتح المنجنيق باتجاه الأفرع العليا فطارت الغربان صانعةً نفس السحابة السوداء، طيران الغربان هزَّ الأفرع بعنف ولحسن الحظ سقطت جميزة أو اثنتان، هرول باتجاه إحداهما وغرس أسنانه فيها فانفجرت المادة البيضاء في وجهه، قرَّب الجندي الجميزة من ذراعه وبدأ يصب على الجرح، لم تكن هناك بثور، لكنه يشعر بأنها ستفيده، خاصة أن وقفته هنا ستطول على ما يبدو، في هذه اللحظة شاهد العقيد ينظر من خلف الشباك، لم يكن يظهر بكامل هيئته وإنما بجزء يسير من وجهه، ولكنه كان كافيًا، نظرًا لضخامته المفرطة، للإعلان عنه، هنا استعاد الجنديُ أحجارَه وبدأ

يطوحها باتجاه الأفرع العليا فطارتْ الغربان، وهكذا استمر في إلقاء الأحجار، واستمرت الغربان في الطيران، والسحابة السوداء في التكوّن، ويبدو أنه بعد صبرٍ طويل غضبت الغربان وقررت معاقبته، حيث لم تعد إلى الشجرة في إحدى المرات، وظلّت تحلق على ارتفاع منخفض في تشكيلات مختلفة، وفي اللحظة التي قرر فيها التقاط أنفاسه كان منجنيقها يعمل.

غرق الجندي في بحرٍ من غائطِ الغربان.

شعر بالغضب وانتبه إلى وجههِ المغطى بالغائط، ونظر إلى الشباك ليرى إن كان العقيد ينظر أم لا، ووجد الستارة تغطي الزجاج بالكامل، هنا فقط ركل الشجرة بقدمه بقوة، ثم ترك نفسه يسقط، ليتألم على الأرض، قال لنفسه إنه بعد ساعتين أو ساعتين ونصف من الآن سيحلُ موعد العشاء، وبالتأكيد لن يتركه العقيد بدون طعام، فكر في هذه اللحظة أن عليه احترام العقيد بشكل أفضل من الآن، إنه بالتأكيد يعلم ما لا يعلمه، بالتأكيد يملك خبرةً أكثر منه سواء هنا، أو في الحياة بشكلٍ عام، وإمعانًا في تنفيذ ما يفكر فيه بشكل فوريٍ نظر إلى الأرض وقرر جمع الأوراق المتساقطة لتسليمها إلى العقيد، لقد طالبه بالحفاظ على هذه الشجرة، ومن الأمانة أن يخبره بكل شيء عنها ويخصه بكل ورقة من أوراقها، سيعتذر له عن استخدام جميزة وبالتأكيد سيسامحه، كان يعرف أنّ الوقتَ يمر بطيئًا، دائمًا ما يمر الوقت بطيئًا في الصحراء حيث لا ينتظرون أحدًا، لا صديقًا ولا عدوًا، كأن جاذبيةَ الرمال تعوق عقارب الساعة عن الدوران بشكل طبيعي.

في إحدى المرات أخبرته فتاة عرفها بالصدفة في أحد كافيتريات المهندسين -حيث كان يطيب له ولرفاقه الإغارة على عالم الأثرياء بشكل دوري- أن لحاء الشجرة يمنح من يقترب منه طاقة إيجابية، تذكر ذلك فجأة. فقرر وضع خده على الشجرة، لكنه بعد ثوان بدأ في الصراخ، حينما اكتشف أن مستعمرة من النمل الأبيض بدأت في المرور على وجهه. محاولة دخول تجاويف أنفه وأذنيه وفمه، بسرعة نفض وجهه، ثم أسقط نفسه على الأرض حينما اكتشف كذلك أن جسده مغطى بالنمل وبدأ يتمرغ في التراب، وحينما نهض عاجلته الغربان بدفعة جديدة من الغائط، في هذه اللحظة شعر بأنه لا يعيش قصة حقيقية، وبالتأكيد يحلم، غير أن زميله في العنبر مرَّ عليه حاملاً "سرفيس" الطعام. قائلاً إنَّ العقيد أمره بإيصاله إليه هنا، كان زميله مندهشًا من شكله الغريب. وسأله هل نزح الطرنشات اليوم؟ ولكنه لم يرد، ولأنَّ زميله ظلَّ متسمرًا في مكانه يتطلع إليه بنفس الدهشة أشار إليه برأسه أن يغادر. فقال زميله إن العقيد طلب منه عدم العودة إلا بالسرفيس.

عبَر الجنودُ أمَامَه وبعضهم حياه بيده، وبعضهم الآخر برأسه، فردَّ التحية بأصابع واهنة، ثم جاء الليل، وتذكر الثعبان والأشباح، وشعر بالقلق يكبر داخله، كان الوقت يمر بدون أن يظهر العقيد، هبَّت رياحٌ فجأةً وطيَّرت أوراق الشجرة التي جمعها على مدار ساعات، في اللحظة التي شاهد فيها العقيد ينظر من الشباك، ولأنه مشوشٌ تخيَّل أن العقيد يعرفُ بأمر الأوراق، وربما هو الذي سخَّر الريح، وبدأ الجندي يطاردُ الأوراق في جميع الاتجاهات، وأمسك بواحدةٍ غير أن عشرات غيرها

أفلتت وطارت بعيدًا، كان قلِقًا ومتعبًا، والتقت عيناه بعيني العقيد الذي ظهر في مدخل المكتب وأشار إليه بالمغادرة، ثم أعطاه ظهره متجهًا إلى غرفته في نهاية المعسكر، كان طريقهما واحدًا، ولهذا فضَّل الجندي أن ينتظر قليلاً، جلس على الأرض مستندًا إلى جذع الشجرة، كان يفكر في الغربان التي يبدو أنها تركته وشأنه قبل العقيدِ بكثير، وفي الحيوانات التي طالبه العقيد بالحفاظ على الشجرة منها هي والبشر والطيور، بالتأكيد هناك حيواناتٌ شرسة يمكنها المرور من هنا ما دام العقيد قد أتى على ذكرها، العقيد يعلم أكثر منه فهذا بديهي، فكَّر في نزول الثعبان من مخبئه، وفي ظهور الأشباح، لكنه مع هذا لم يتحرك من موضعه، فكَّر أيضًا في جرحه، وفي هيئته المتسخة، وفي كراهيته للماء شديد البرودة في هذا التوقيت لو أراد الاستحمام، ثم أغمض عينيه وترك نفسه ليسقط وينام.

ماء العقرب وتراب العذراء

في البدء كان الطين، ماء العقرب وتراب العذراء.

باب الأبراج لم يكن مجرد ورقة أسلّمها لرئيسِ قسم بريد القُرَّاء في جريدتنا، كنت مقتنعًا أكثر من أي شخص آخر أن الأبراج لها تأثيراتها الحقيقية علينا، على حياتنا وعلاقاتنا بالآخرين ومصائرنا، أقرأُ كثيرًا من المراجع في الأبراج، محاولاً فهم حركتها، وطريقة حساب علاقاتها المتشابكة، كيف ترضى عنا وكيف تنقلب علينا، كيف تكون محايدة وكيف تتدخل في شؤوننا كعاصفة تقتلعنا من جذورنا.

كوَّنت بمرور الوقت خبرةً كبيرةً استطعت من خلالها فهم الكيفية التي تتحرك بها، متى تنذر بالسوء ومتى تعد بالأمل، متى تأتي كالطوفان وتلقينا بقسوة ومتى تحملنا بحنو فوق سحاباتها، كنت مقتنعًا بتأثيرها على العمل والرزق، على العاطفة والجنس والحب والكراهية، حتى المرض والموت، الأبراج تتحكم بنا، وبكل شيء حولنا، تبدأ حركتها من حركة الحياة ذاتها، الحياة بتدرجاتها الملونة الزاهية، وتنتهي بالسكون، حيث يحلُّ الموت بصورته النمطية، الأسود الحزين.

رئيس القسم يندهش حينما أتأخر في تسليم المادة ويسخر مني، ويقول: إنه ينجزها في غيابي خلال دقيقتين أو ثلاث، كان يطلب مني إحدى عشر برجًا فقط، إذ يتولى بنفسه منذ سنواتٍ كتابة برج "الثور"، فلم يواجه "الثور" أي قلق في باب الأبراج بجريدتنا، حياته مشرقة، عمره أمامه، رزقه شلاّل، وبالتالي وبما أن جريدتنا في هذا التوقيت كانت توزع حوالي نصف مليون نسخة فبالتأكيد كان آلاف الثيران من قراء جريدتنا ينعمون براحة البال، ولم يشعروا أبدًا بالقلق حيال شيء، لكنهم ربما لم ينتبهوا أبدًا أن البرج في جريدتنا يخص رئيس الدولة.

في كل مرةٍ أطالعُ برج "الثور" أشعرُ بأنّه دخيلٌ على كتاباتي، كأنه البطة السوداء وسط أبناء الأوزة، كانت عباراته مكررة، ربما ثلاثون جملة يتم تدويرها بامتداد الشهر، وهكذا حتى نهاية العام، في حين كنت أعاملُ أبراجي الإحدى عشر بجدية شديدة، فحصدتُ نتيجة اهتمامي بها بمرور الوقت، حيث تصلُني عشرات الخطابات والفاكسات، أحد أصحابها على سبيل المثال، يسألُني عن السبب في الحظ العاثر الذي يواجه برجَه دائمًا، فهو يشعر بالتعنت تجاهه ويريد أن يحصل على إجابة حقيقية عن سؤاله: هل الأمر حقيقي أم أنه مجرد تأليف؟! رئيس القسم يمنحني أحيانًا مساحةً صغيرة من باب "بريد القراء" لأرد على الأسئلة، وأحيانًا كنت أرد بفاكسات أو خطابات، ولاحظ رئيسُ القسم أن حجم الخطابات والفاكسات يزداد، كانت تنمو فوق المكاتب صانعةً أبراجًا صغيرة، كان رئيسُ القسم ينقل تلك الصورة دائمًا

لرئيس التحرير، وبالتالي لم يلغ أو يؤجل أبدًا صفحة "بريد القراء"، و كانت الأبراج الركنْ الأساسي بالصفحة وزينتها، بتعبيره.

رئيس التحرير استدعاني، وأخبرني بصوتٍ لا يخلو من حماسٍ أنّ وزيرًا اتصل به طالبًا كتابة شيءٍ لطيفٍ لبرج "الأسد" صباح الغد، لم أكن مهتمًا، ربما يخص هذا البرج أحد أبنائه، ربما زوجته أو عشيقته، ويريد الترفيه عنهم بشكلٍ ما، قلت ضاحكًا: إنّ الأبراج قد تغضب، وتركته مقررًا تجاهل طلبه.

قابلني رئيسُ القسم في الممر أمام مكتب رئيس التحرير، وكانت عيناه تحملان تساؤلاً، لكني لم أخبره بأمر الوزير ولا الأسد، وسألته إن كانت الفتاة التي سترافق أبي قد حضرت فأكد أنها تنتظرُنا في الكافيتريا، فكرت أنّ من ستوافق على مرافقة أبي ربما يصيبها الجنون في النهاية، ابتسمتُ، لا بأس أن يساعدني أحدٌ ما في العالم، طلباتُ أبي ليست كثيرة، لكنه صعبٌ للغاية، ولا يرضيه شيء.

فجأةً تداعى أبي، ظهرتْ بؤرةٌ سرطانيةٌ على كبده، وبعد فحوصات أجرى عمليةَ كيٍّ للبؤرة، ولم نهنأ بنجاحها فبعدَ شهرينِ ظهرت بؤرةٌ ثانية، وتسبب كيُّها في جلطة بالشريان البابي، جلطةٌ جعلت حركتَه صعبةً للغاية، لم يعد بإمكانه الذهاب إلى الصلاة في المسجد القريب كما اعتاد، فصار يصلي بالكاد وهو يجلس على كرسي، قبل أن يتجه إلى البلكونة ويترك نفسه للشمس، لم يعد مهتمًا بتشجيع فريقه، ولا الاستماع إلى برامجهِ المفضلة على الراديو، لم أضيّع

فرصةً للذهابِ معَه إلى المستشفى، كنا نجلسُ بالساعاتِ أحيانًا في انتظار عرضه على فريق الأطباء، لم تكن الأمورُ تسير على ما يرام، لأنه لا يقتنع دائمًا بكلامهم، ويدخل معهم في جدالات، فيبدون تفهمهم لسبب عصبيته ويتركونه يتحدث كيفما شاء، ثم يخبرونه في النهاية بقرارهم، كان على استعدادٍ للجدالِ معهم طويلاً غير أنني كنت أتدخل لأهمس في أذنه منبهًا إلى الآخرين الذين يقفون في الخارج بانتظار دورهم، لم يكن مقتنعًا بالعلاج الكيماوي رغم أنهم حذَّروه؛ فجسده ضعيف ولن يحتمل الحقن مرةً أخرى، يخشى من التأثيرات الجانبية للكيماوي، خاصةً سقوط الشعر، لكنه في النهاية رضَخَ لهم، قلتُ له ضاحكًا بينما نغادر غرفة الاستشاريين بالمستشفى: "ممكن تحلق شعرك على الزيرو".

كنا وحيدين منذ أن توفيت أمي، وهجرتني زوجتي قبل عامين، أقنعتُه بالكاد منذ فترةٍ أن يترك شقته ويأتي ليقيم معي، فكرت في الحصول على إجازةٍ للعناية به لكن رئيس القسم اقترح عليَّ هذه الفتاة، خريجة كلية الآداب، التي تجيد الإنجليزية بطلاقة، ويعرفها وأهلها جيدًا، لم تعمل حتى الآن، وتريد مساعدة أمِّها في مصاريف البيت، لا تملكان سوى معاش الأب الراحل، وصلنا إلى الكافيتريا فأشار إليها، وكانت تجلس في مواجهتنا، لم أتبينها جيدًا، ولكنني تخيلتُها جميلة، شيءٌ ما قال لي إنَّها جميلة، لم تكن فاتنةً فقط ولكنها تنفجرُ بالأنوثة، ملابسُها المتحفظة قليلاً لم تحجب أنوثتها عن العالم، رسمت جسدَها في عقلي فورًا، كان لدنًا وفوارًا، رأيتها عاريةً وشعرُها

الأسودُ يسترسلُ فوق كتفيها، وجهُها خالٍ من المكياج، ووجنتاها مشربتان بحمرةٍ خفيفة، وتمنيتُ في هذه اللحظة أن ترافقني بدلاً من أبي، رئيس القسم قال وهو يشير إليها: "ملكة"، صوته أوقف خيالاتي، ومسح صورتها من رأسي، كما لو أنها مرسومة بالرصاص وأزالها بأستيكة.

في الطريق إلى شقتي بدأتُ أحكي لها عن أبي، وأحذرها من عصبيته، أرجوها أن تتحمله بمنطق تحمل رجلٍ كبير في نهاية حياته، وكانت تطمئنني بكلمات مقتضبة، ثم سألتُها عن دراستها وأهلِها محاولاً أن يبدو الأمرُ عاديًا، حينما سألتُها عن مكان سكنِها قلتُ لها إنني أريدُ حسابَ الوقت الذي تحتاجه للوصول منه إلى شقتنا، ثم سألتُها فجأةً، بدون أن أعرف كيف أفلتت الكلمات مني، إن كانت مرتبطةً فأومأت برأسها، كان شيئًا مُحبطًا للغاية في الحقيقة، غير أنها منحتني أملاً بسيطًا، فلم تقابل خطيبها المحتمل حتى الآن، يتحدثان فقط تليفونيًا، هو من يتصل بها من الإمارات، لأنها لا تستطيع تحمل كلفة المكالمات الدولية، جارةٌ لهم جاءتها وقالت إنه ابنُ عمها، وتريد أن تخطبها له، غير أنها لم توافق ولم ترفض، مشترطةً أن تعرفه أولاً، وهكذا بدأ التواصلُ تليفونيًا بينهما، هو سيأتي بعد شهر، حصلتْ على موافقةِ أمها على مقابلته لمرةٍ واحدة خارج المنزل ليراها وليقرر، بعدها إن أراد فليأتِ إلى المنزل مباشرة.

في أيام قلائل أصبحت ملكةُ هي الآمرة الناهية في شقتنا، فوجئت بعطائها غير المحدود، تتصرف كما لو أن أبي أبوها، وكما لو أن شقتي

شقتها، لم تبخل علينا بشيء، كانت تنظف الشقة رغم أنني أخبرتها بمجيء عاملة نظافة أسبوعيًا، وقع أبي في غرامها، وأحب طعامَها، وكان يعاملها باعتبارها ابنته، كنت أنهي عملي وأعتذر لأصدقائي بسبب انشغالي، مع أنني في الحقيقة أريد الطيران إلى الشقة لأراها، وأشاهد ابتسامتها الدائمة ووجهها المنقوع في تلك الحمرة الجميلة، وجسدها الذي يَعدُ بالكثير، كان مدهشًا أنها لم تلحظ اهتمامي بها، حتى في إصراري شبه اليومي على أن تنتظر معنا قليلاً لتناول الغداء، كنتُ أسألها كذلك عن خطيبها المحتمل، فتخبرني في كل مرة بقرب وصوله، خطرَ لي أن أسألَها كذلك عن برجها، كانت المرة الأولى التي تبدي فيها ذلك الحماس البالغ في حديثٍ يجمعُنا سويًا، عرفت حالاً أنها مولعة بالأبراج، تنتمي إلى برجِ العذراء، كان يجب أن أخمن، من خلال حرصِها الزائدِ على الترتيب والنظافة، ضحكتْ، قلتُ لها إنك على ما يبدو اجتماعية وتحبين الاختلاط بالناس، تهتمين بأناقتك، وتتمتعين بالكرم، ولا أعرف إن كان انتماؤك إلى ذلك البرج هو السبب في استمرارك معنا يوميًا لوقت أطول أم لا؟! لم تقل شيئًا، واكتفت بوضع يدِها على فمِها، رأيتُ صورتي في عينيها، وشعرت أنها تراني للمرة الأولى، أتحدث عن العذراء لكنني بالأساس أتحدث عنها، أنتِ بالتأكيد اجتماعية، وفية، أكثر وفاء من كلب، أضحكُ معتذرًا، لا أقصدُ الإهانة، فتقول إن الكلاب أفضل حالاً منا على أية حال، وتهز رأسها ضاحكةً بدورها، أعود إلى الكلام، وبما أنك عملية فأنت حريصةٌ بعض الشيء، لستِ بخيلة ولكنك غير مسرفة، وتستطيعين أن تضعي

القرش فوق القرش، وبما أنك عملية فأنت واقعية كذلك، جريئة، ورغم جرأتك إلا أنك خجولة أو تتحسبين في كل المواقف التي تحتاج إلى مواجهة، بل إنك تكرهين المواجهة، تهز رأسها موافقة ومنبهرة، أنتِ قادرةٌ على أسْر من أمامك بأسلوبك الجذاب، وبطريقتك الجميلة في الحديث، غير أنك تبخلين علينا، أشير إليها فتضحك، وأتمادى ناظرًا إلى جسدها من أعلى إلى أسفل، الرجال يحبون رقتك، وأنوثتك الطاغية، جاء أبي في هذه اللحظة وقال: "فاكر نفسك عارف كل حاجة!"، ثم أكمل طريقه إلى غرفته، وربما أنقذها في هذه اللحظة من الإحساسِ بالحرج، أنت تكرهين المبالغات، ولديك قدرةٌ على فهم الشخص أمامك، تستطيعين قراءة ما بين السطور مهما حاول ذلك الشخص تخبئة أفكاره، لكنك للأسف لن تقولي له ما يدور برأسك، ولو وقعت في غرامه لن يعرف بسهولة، بل إنه ربما يتركك لأنه يشعر بأنك أكثر قسوةً من صخرةٍ في تعاملك معه، أنت لا تكفين عن الحركة، هادرةٌ ومزعجة، لا أحد يستطيع مجاراتك في نشاطك البالغ الذي لا يوقفه سوى المرض، تكرهين المجاملات، ولو قلتُ لك الآن إنك أجمل فتاة هنا في المهندسين، أو في العجوزة حيث تسكنين، فلن تصدقيني، تضحك بينما تكبر الدائرتان الحمراوان على وجنتيها وتغطيان وجهها بالكامل، ولحسن الحظ أنك تميلين إلى رفع معنويات الأشخاص الذين تعرفينهم، بالتأكيد أبي محظوظ، أتنهد ساخرًا، ليتني كنت بديلاً له، كانت تتفتحُ أمامي كوردة، أرفع ورقة تلو ورقة، وطبقة تلو طبقة، حتى أصل إلى رحيقها، أشم رائحتها فتسكرني، ومع

هذا لا أنسى أبدًا المسافة الشاسعة التي تفصلنا، ظهر الحرج على وجهها، وحتى أعيدها إلى طبيعتها سألتها عن برج خطيبها المحتمل فقالت إنه ميزان، قلت إنه بالتأكيد لن يصلح لها، كل التقديرات بنجاح علاقتهما لا تتجاوز ثلاثين بالمائة، لكنها تجاهلت جملتي متسائلةً فجأةً عن سر ولعي بالأبراج، ولسبب ما لم أقل لها إنني مسؤول عن باب الأبراج في جريدة قومية، أشرت إلى مكتبتي في الجانب ودعوتها للنظر إلى رفٍ يمتلئ عن آخره بكتب الأبراج، فقالت إنها رأتها بالطبع في أثناء تنظيفها للشقة، لكنها تسألني عن سرِ ولعي بها على وجه التحديد فقلت، لا أعرف، لكنه ولعٌ قديمٌ بدأ معي في فترة الجامعة.

نبهت على أبي ألا يخبرها بشيء عن عملي، فليقل لها إنني صحفي فقط، أبي كان لا يكف عن الحديث، ولديه متعةٌ في إخبار الناس بأدق تفاصيله وتفاصيلي، كان يتحدث مع الأطباء عن طعامي المفضل، فيبتسمون دون أن يعبِّروا عن مللهم، أو ضيقهم، وينتظرون كالعادة اللحظة التي سيصمت فيها أو التي سأتدخل لاصطحابه خارج المستشفى، كنت أتركُ الجريدة على الطاولة في الصالة مفتوحة على صفحة "بريد القراء"، أطويها تحديدًا على الأبراج، لن تشك بالتأكيد في شيء، فهي تعرف ولعي بالأبراج، لكنني أعودُ من الخارج وأجدُ الجريدة في مكانها، وعلى نفس طيتها، وقررتُ أخيرًا قراءة الأبراج بصوتٍ عالٍ أمامها هي وأبي بينما يجلسان في مواجهتي، وأنظر في عينيها حين أصلُ إلى العذراء: "لا داعي للارتباط العاطفي في الوقت الحالي"، كنت أحرصُ على فعل ذلك كل يوم: "هناك شخص جديد سيظهر في

حياتك ويغيرها إلى الأسوأ"، "الرياح السوداء تأتي مع الغرباء"، العد التنازلي بدأ لحضور خطيبها المحتمل ومع هذا لم أيأس حتى اللحظة الأخيرة، وكانت قدرتها على التماسك مدهشة، لم يكن وجهها يعكس شيئًا، حتى قررت سؤالها عن رأيها فيما سمعتَه للتو: "لا ترتبطي بشخصٍ يعملُ في الإمارات"، في هذه اللحظة ضحكتْ، وسألتها عن سبب ضحكها فقالت إن من يكتب الأبراج يبدو كمن يعرفُها شخصيًا، فضحكتُ بدوري، قائلاً إنه زميلي في الجريدة وأثقُ به، وهو عالمُ أبراج، ضحكتْ مرةً أخرى كأنها لا تصدقُني، بعد ذهابها قال أبي إنه لم يستطع إخفاء الأمر عنها أكثر من ذلك، قال لها كل شيء، أنا من يكتب الأبراج، ومن يكتب كذلك باب "أريد زوجًا.. أريد زوجة"، وأنا من يحبه المشاهير ويطلبونه بالاسم في منازلهم ليحدثهم عن الأبراج، وأنا من يستضيفني "البرنامج العام" في الإذاعة المصرية لأتحدث عن حركة النجوم، شعرتُ بغضبٍ كبير جاهدتُ لأبقيه في مكانه، كنت غاضبًا من أبي، ومن ضحكها أيضًا، فهمت سببه الآن، غير أنني التمست لها العذر، فهي لم تبدُ فجةً على الأقل، غمزَ لي أبي، ونصحني بأن أمنحها وقتها لتفكر وتقرر.

اقتنعت بكلامه، لكنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالضيق والحزن، كيف سمحت لنفسي لأول مرة بأنانية مفرطة أن أستخدم الباب لمصلحتي؟! حتى حينما هجرتني زوجتي فكرت في الانتقام منها بتوجيهِ رسائلَ قاسيةٍ إليها من خلاله لكنني تراجعت، استدعاني رئيسُ التحرير، أخبرني بغضبٍ أنَّ الوزير اتصل به حالاً، معبِّرًا عن ضيقه

الشديد لأنه يجد "الأسد" يزداد تعاسةً كل يوم، لم تتحسن أحواله كما طلب، كان غضب رئيس التحرير هادرًا، فهو يرى أنه طلب مني شيئًا صغيرًا، ولكنني كالعادة تجاهلتُ طلبه، كان يصيح هاتفًا أنه كبير المكان، وحتى ولو لم يكن كذلك لكان عليَّ مجاملته، على الأقل باعتباره زميلاً، لكنني شخصٌ لا يقيم وزنًا للزمالة، ثم سألني فجأة عما أكتبه في برج العذراء، وإن كان موجهًا إلى شخص بعينه، وبالتالي إذا كنت أوجه رسائل إلى أشخاص معيَّنين فلماذا أرفض ذلك حينما يطلبه هو؟! في الخارج قال لي رئيس القسم إن خطوبة ملكة ستتم اليوم، وإنها تعتذر عن الاستمرار مع أبي، قال كلامًا كثيرًا عن أنها أحبته، لطالما اعتبرته أباها، لكن الشخص الذي سترتبط به طلب منها ترك هذا العمل فورًا.

الغضب أعماني في هذه اللحظة، كنت متجهًا إلى خارج الجريدة، وبدلاً من هذا وجدتُ نفسي أتجهُ إلى غرفة التنفيذ، طلبتُ صفحةَ بريد القراء من المنفذ، ففتحَها على الكمبيوتر أمامه قائلاً: إنَّ رئيس القسم وقَّعها، فقلت لا عليك، رئيسُ القسم يعرف أن هناك تعديلات، بل إنه هو الذي طلبها، أشرت إلى خانة الثور، وقلت له: "اكتب للثور: احذر من الأسد إنه يترصدك"، وأشرت إلى الأسد: "اكتب هنا: لا تكن ناكرًا للجميل"، ثم العذراء: "أنت مصدرُ سعادة دائمة للمحيطين بك" اتجهتُ إلى المنزل وأنا أفكر ما الذي دعاني إلى هذا، كنت أتخيل بشماتة شكل الأسد وهو يفكر في الطريقة التي سيبرر بها للرئيس سبب نكرانه

للجميل، لكنني كذلك تخيلت شكل رئيس التحرير وهو يشاهد الباب مساءً، أو حينما يرن هاتفه الأحمر، ليخترق صوت الثور الهائج أذنه.

فتحت الباب ورأيت أبي يقف وعلى وجهه ابتسامة كبيرة، بينما يمسك بيد ملكة التي لوَّحت لي من مكانها تلويحة خفيفة خجولة، صدمني المشهد، وقد أدركت معنى النظرة التي ترمقني بها، وفكرت لو أن العقرب يتفجَّر بالماء في تلك اللحظة، جدولاً صغيرًا يسيل باتجاهها، بينما تتحول العذراء إلى غبار، كومة تراب متعطشةٍ للماء، كنت أفكر بينما أسير إليها، أنه في البدء كان الماء والتراب، ورأيتنا عاريَيْن، عاريَيْن نرقص على الطين، ورأيت أن ثورًا وأسدًا يتواجهان، فيُجهزُ الثورُ على الأسد بلطمةٍ واحدة، ورأيت أنه ـلا محالةـ سيلتفتُ بعد هذا إليَّ.

تجاوز الحد المسموح في ذلك اليوم بسيجارة، لمحَ أربعةَ أعقابٍ في المنفضدة الموضوعة على الطاولة أمامه، وشعر بالغضب من نفسه، ربما هذه هي المرة الأولى منذ عامٍ كامل التي يكسر فيها نظامه الخاص.

قرر معاقبةَ نفسه بخصمِ سيجارةٍ من حصَّة الغد، لا ليس ذلك فقط، وإنَّما أيضًا حرمان نفسَه من الجلوس اليوم في مقهى ٢٦ يوليو، دوَّن بخطٍ واضح في مفكرته العقاب، وحتى يضخِّم من إحساسه بتأنيب الضمير قلَّب في المفكرة، مذكرًا نفسه بالخطايا التي ارتكبها طيلة ثلاثة أعوام، هي عمره بعد الخروج إلى المعاش.

كانت زوجته تجلس كتمثالٍ رخامي، تحت إضاءة الشمس التي تجتاح الصالة من شباكٍ يُطلُّ على كوبرى "مايو"، وأحسَّ أنه لو لمسها فربما تلسعها حرارته، ولسبب ما شعَرَ بأنه لم يرَها منذ شهورٍ طويلة، أو كما لو كانت شخصًا دخيلاً على الشقة، خالجه كذلك الشعور الدائم بأن وجهها الضخم لا يتناسب مع جسدها الضئيل، كأنَّ المثَّال الذي

تحتها أخطأ قليلاً في تقدير حجمه، كانت رقبتُها تختفي بمرور الوقت، وخمَّن أن ثقل الرأس هو السبب، كان الرأسُ يضغط على الرقبة ويدفسها داخل جسدها الذي يشبه برميلاً، وفكَّر أن الله قرر معاقبته حينما حوَّل ملامحها لتصير شبيهةً بملامحه، كان رأساهما شبه متطابقين، ما عدا أنها تمتلك شعرًا رماديًا مفلفلاً، ويمتلك هو صلعةً مصقولة، ليس الله السبب، هكذا قال لنفسه، كان مقتنعًا بأن معاشرة شخص ما سنواتٍ طويلة يجعله شبيهًا به، يتذكر أستاذًا جامعيًا في القسم الياباني، صار نسخة يابانية.

لم يكن يقرُب زوجتَه منذ سنوات، ولم تطلب هي بأي شكلٍ ممارسةَ الجنس معه، فكَّر في هذه اللحظة أنه يريد مدَّ يديه الاثنتين ليصفعها على خديها في توقيتٍ متزامن فتستيقظ من غفوتها الدائمة، هذه المرأة الشاردة طوال اليوم تبدو وكأن الحياة غادرتها منذ زمن، يتخيل أنها تتحرك بنوع من الطاقة الغامضة المتبقية في جسدها، يمر اليوم عليهما فلا يكادان يتبادلان إلا عبارات قليلة، تدور في الأغلب حول غرابة أطواره، لا تبدي قلقها عليه أبدًا، كان يتمنى لو تعنفه على تدخينه سيجارة زائدة، أو تدخينه من الأساس، يسأل نفسَه باندهاش: هل تشعر بالقلق أصلاً؟! لا يتذكر آخر مرة أبدت فيها نوعًا من المشاعر تجاهه، ولا يظن أنها تعرف شيئًا عنه، توقفت تمامًا عن معرفة الكيفية التي يفكرُ بها، لكن وجودها كان لازمًا لوجوده، تمنحه الإحساس بأن الحياة عادية ومستمرة، ومع أنه لا يفكر فيها كثيرًا، فإنه يرغب في رؤيتها دائمًا تتحرك ببطءٍ حوله.

سألها إن كانت رأت تمساحَه اليوم؟! فزفرت بغضب.

لم يكن تليفونه يرنُ أبدًا، يتذكر بنوعٍ من الأسى أنه كان يمتلك ثلاثة تليفونات لا تتوقف عن الرنين، كان المشاهير من جميع المجالات، يترددون إليه لنشر أخبارٍ عنهم في جريدته، أو لإنهاء حملات هجوم عليهم، يشكون له عنف بعض النقاد، أو يشكرونه على مقالات مدبجهم، أو يطلبون إجراء حوارات معهم، كانت كلمةٌ في مقالةٍ له قادرةً على هز القاهرة، الحكومةُ تنقلب رأسًا على عقب لو غَضِب، لطالما غَضِب، ولطالما هاتفه رئيس الوزراء ليعاتبه على ذلك الغضب، طالبًا منه أن يخفف نبرته قليلاً، لم يكن يهتم فليست صحيفته قومية.

زملاؤه الكبار لا يتذكرونه، ولا يردون على اتصالاته، شعر بألمٍ جارحٍ حينما أغلق أحدهم الهاتف في وجهه، حتى الصحفيون الصغار الذين صنعهم على يديه وحوَّلهم إلى رؤساء أقسام وصفحاتٍ لا يردون على اتصالاته، كان يتخيلُ أنهم سيكتبون عنه باستمرارٍ في عيد ميلاده، لكنه كان يمر حتى بدون إشارة، لم يتوقف عن متابعة الجريدة والإحساس بالأسف البالغ على الحال الذي وصلت إليه، رئيس التحرير لا يُلقي بالاً لأخبار السياسة، ويفرد مساحاتٍ ضخمةٍ في الصفحة الأولى للفن والرياضة، التحليلاتُ السياسية صارت ضحلةً، وظهر شبابُ بعد الثورة يكتبون في السياسة من السطح، نبرتُهم عالية، وبلا مضمون كالبراميل الفارغة، الجريدة تنهار بكل تأكيد، فكَّر، لم يكن في حاجةٍ للسؤال عن أرقام التوزيع، في عهده كانت تصل إلى

أكثر من ثلاثمائة ألف نسخة. لكنه يتخيل الآن أنها انهارت إلى بضعة آلاف، يتعذبُ يوميًا وهو يفكر في كل ذلك.

لا يعرف لماذا تعتبره زوجته غريب الأطوار. كان فقط يريد أن يحظى ببعض الاهتمام. ولا يجد مانعًا من الكذب قليلاً ليحصل على ما يريده، كما يفعل عقيد هوجو لوتشر . ثم إنَّه لا يقلد العقيد في سلبياته فقط. لكنه أيضًا يقلده في نظامه الصارم الذي يفرضُه على نفسهِ. كان العقيدُ يعاقبُ نفسَه إذا أخل بذلك النظام. لكنه مع هذا يقرر كسر العقوبة -أحيانًا- حسن السير والسلوك. وهو سيفعل مثله. لقد مرَّ اليوم بدون أن يدخن أي سيجارة. ومن الواضح أنه لن يتجاوز المعدل الذي قرره لنفسه. وهو سيجارتان فقط. وبالتالي ونظرًا لحسن السير والسلوك قرر النزول للجلوس في مقهى لزمالك. أسفل كوبري مايو مباشرة.

قبل أن يصل إلى المقهى أوقف شخصا وقال له بلهجةٍ محذرةٍ إن هناك ثورًا هائجًا أفلت من أحد الجزارين وربما يقابله في الاتجاه الذي يسير فيه، لم تفلح الخدعة مع ذلك الشخص الذي رمقه بنظرةٍ بدت له بليدة، وعاد إلى وضع سماعتيه في أذنيه. وأكمل طريقه بشكل عادي للغاية. فكر: إذا كانت خدعة الثور لا تفيد فليجرب خدعة العقيد إذن.

بعد قليلٍ من الوقت على المقهى نهض صائحًا في بعض الزبائن الغرباء أن تمساحه كان مربوطًا في قدم الكرسي. ولا يجده، كان حريصًا على توضيح أن فكيه مربوطان بحبل. وليس عليهم القلق أبدًا،

فقط يطلب منهم مجرد تحريك أقدامهم ليرى إن كان يزحف أسفل أقدامهم أم لا، ثم قال بصوتٍ عال إنّ التمساح ربما يكون زحف إلى الشارع بدون أن يلحظه أحدهم، نهض الزبائنُ الغرباء بفزع، أما الزبائن الدائمون -ومنهم صحفيون على المعاش- فاكتفوا بالابتسام وهم ينظرون إليه ورأى أحدهم يميل على أذن آخر هامسًا بشيء ما، عنه بكل تأكيد، كان معجبًا بتواطؤ زملاء المقهى القدامى، جاء النادلُ وقال للزبائن إن الأستاذ يمزح، هذه عادته، ولا توجد تماسيح، فنظروا إليه باندهاشٍ وبغضب، غمره في هذه اللحظة ارتياحٌ بالغٌ، لم يكن يمزح بالطبع، أصبح محطّ الاهتمام في المقهى الآن كما أراد، وحرص على أن يكون كرسيه في مكان يستطيع الجالسون جميعًا رؤيته من خلاله، كأنهم الجمهور وكأنه النجم فوق خشبة مسرح، أراد فقط أن يستمع إلى تصفيق، بينما يضعُ ساقًا فوق الأخرى.

لم يكن ثمة أمرٍ معينٍ ينوي فعله في الساعات التالية، غير أن فكرةً عظيمة طرأت على ذهنه، وأضاءت عقله المشوش المظلم، عليه أن يتجه فورًا إلى الجريدة، الساعة تشير إلى الخامسة، وأمامهم ساعةٌ على الأقل لينتهوا من الصفحة الأولى، المسافة من الزمالك إلى جاردن سيتي ليست كبيرة، يتمنى فقط أن تسعفه الشوارع في الوصول خلال وقت مناسب.

لم يوقفه موظف الأمن، رحَّب به بوجهٍ مندهشٍ وبغمغماتٍ متلاحقة، سار من الصالة باتجاه ممرٍ يفضي إلى غرفة التنفيذ، لم يلمح أحدًا يعرفه، معظم الوجوه لم يرها سابقًا، نهض المنفذون وظهرت على

وجوههم دهشةٌ بالغة حينما رأوه، لكنهم رحبُّوا به، سأل عن رئيس التحرير فقال أحدهم إنه أنهى الصفحة الأولى وذهب إلى مكتبه فطلب منهم رؤيتها حالاً، قائلاً إن هناك بعض التعديلات التي يرغب في إجرائها، شعر المنفذ المسؤول عن الصفحة بالارتباك، كما بدا مزيدٌ من الاندهاش في عيونِ زملائه، حسم المنفذ تردده وفتح الصفحة وبدأ يستمع إلى التعليمات، عليه حذف تقريرٍ فني وإبراز تقرير سياسي على مساحة أكبر، تغيير بعض كلمات العناوين، إلخ.

وفي هذه الأثناء انسلَّ أحدُ المنفذين إلى الخارج واستدعى جيشًا من مديري التحرير، ثم ظهر أيضًا بعد ثوانٍ رئيس التحرير الذي بدتْ على وجهه علاماتُ دهشةٍ عظيمة ممتزجة ربما ببعض الغضب، مصافحًا إياه ومتسائلاً: "مش كان المفروض أشوفك في مكتبي يا أستاذ الأول؟!"، خرج بصحبته وخلفهما سار الجيش الذي جاء من الخارج، جلسوا في قاعة الاجتماعات ينظرون إليه باندهاش بالغ، ثم فجأة خبط بقوةٍ على الطاولة الضخمة، وبدأ في إلقاء خطابٍ طويل عن الجريدة وتراجعها، قال إن رئيس التحرير لا يلقي بالاً للسياسة مع أن هذه الجريدة المستقلة أنشئت أصلاً لتكون صوتًا لمن لا صوت لهم، صحيحٌ أنها تقف بحياد وعلى مسافة من الجميع إلا أنها معارضة، ليست في اليسار ولكنها تميل قليلاً إليه، أصبحت الجريدة للأسف تلهث خلف الفن والرياضة بحثًا عن الانتشار، إنه يعرف أن المبيعات انخفضت بنسبةٍ كبيرةٍ للغاية، وهذا يعني أنه لا الفن ولا الرياضة قادران على انتشالها من كبوتها، يجب ألا تتخلى الجريدة عن خطها، ثم من هؤلاء الشباب الصغار الذين يُسمح

لهم بكتابة أعمدة؟! إنهم في العشرينيات واستولوا على أماكن أسماء لامعة وبارزة، استمر في الحديث بدون أن يقاطعه أحدهم حتى خبط كفُه مجددًا على الطاولة ثم نهض متجهًا إلى الخارج، ولاحقه صوتُ رئيس التحرير: "لعلمك، مبيعات الجورنال تضاعفت أربع مرات!"، لم يد عليه أنه سمع الجملة فلم يتوقف واندفع كالطلقة إلى الخارج، وهو يشعر بنوعٍ من الزهو، فكر في أنَّ معظم الصحفيين ينظرون إليه باهتمام وربما باحترام، وبالتأكيد ستترك كلماته تأثيرًا عليهم، الآن ربما يتجرأون ويرفعون صوتهم عاليًا ويقولون آراءهم بصراحة شديدةٍ لرئيس التحرير، لا تهم المبيعات، ثم من قال إن رئيس التحرير صادق؟! لا يوجد رئيس تحرير يعترف بأرقام التوزيع الحقيقية، كان يتحرك مدفوعًا بنداء الواجب، فليس عليه أن يقبض المال ليقول رأيه في مكان أسهم في بنائه ويراه ينهار أمام عينيه، سيكون عليهم أن يحملوا جثته قبل أن يتوقف عما سيفعله خلال الفترة المقبلة.

بمجرد أن فتح باب المنزل رأى زوجتَه تجلس على كرسي بجوار أباجورة وتُقرِّب عينيها من إبرةٍ محاولةً تمريرَ الخيط في فتحتها، نظرتْ إليه من أسفل نظارتها، قبل أن تتجاهل وجوده، كان متحمسًا للغاية، وبدأ يتحدثُ بصوتٍ عال، كان مهتمًا بأن يسمعه أحد، أي أحد، حتى لو كان زوجته، وَصَفَ بطولته اليوم، انبهار الصحفيين ورئيس التحرير بتدخلاته في الصفحة الأولى، صياح رئيس التحرير أمام الجميع: "عناوينك سبايك دهب"، بعد هذه الحفاوة، قال بحماسٍ بالغ: سيمر عليهم كلما سمح له وقته الثمين، رئيس التحرير وصفَه بالأستاذ، في

وقت لم يعد فيه أساتذة، وبأنه قدوتهم جميعًا، بالتأكيد وبَّخ رئيسُ التحريرِ نفسَه على طبخته الباهتة في الصفحة الأولى، المقادير لم تستوِ إلا بعد تدخل الأستاذ، تدخله هو شخصيًا، كان مديرو التحرير أيضًا منبهرين، إنهم تلاميذه الذين كانوا محررين صغارًا بالأمس، عاد إليهم أستاذهم فعاد إليهم الانبهار، وهو لن يبخل عليهم بالنصيحة، لأنها رسالته التي لا ترتبط بمنصب، كان مستمرًا في الحديث، قبل أن تصرخ زوجته في هذه اللحظة فتوقف محاولاً أن يفهم ماذا حدث، كان إصبعُها ينزفُ بعد أن اخترقته الإبرة. صرخت مرتين أو ثلاثًا، وربما سمعها تشخر، لم يستطع التحديد، وإن انهارَ حماسُه للحديث بشكل عام.

في اليوم التالي حرص على الذهاب إلى الجريدة مبكرًا نصف ساعة، دخل إلى الصالة وسمع من ينادي عليه لكنه لم يلتفت، يخشى أن يكونوا قد انتهوا من الصفحة الأولى، عليه الإسراع إذًا، إنها "الفاترينة" التي تعرض فيها الجريدة بضاعتها، وهو أستاذٌ في ترتيب فتارين الجرائد، أسس أربع جرائد مستقلة لها باعها الآن في سوق الصحافة، ولن يسمح بانهيار أقربها إلى قلبه، كان رئيس ومديرو التحرير يقفون هذه المرة حول شاشة التنفيذ، حيَّاهم بصوتٍ قوي مثلما هي عادته لكنهم لم يردوا بشكلٍ واضح، وارتفعت همهماتهم، ولكنه مع هذا كان يراهم مرحبين للغاية، وأشار إلى المنفذِ قائلاً: "كبِّر الصورة يا ابني"، انفجر رئيس التحرير فيه فجأة، كان يصيح ثائرًا أن ما يفعله شيءٌ غريب، لا يمكن أن يصدر عن عاقل، ويكسر كل قواعد الاحترام، وسأله هل يرضى بذلك إن كان رئيسًا للتحرير؟! لكنه لم يرد.

كان حريصًا في هذه اللحظة على النظر في عيون مديري التحرير، رآها تنطق بالغضب، ورأى وجوههم على وشك الانفجار في وجه رئيس التحرير، لا يصح أن يتعامل مع الأستاذ هكذا، لكنهم لن يجرؤوا -بالتأكيد- على التصريح بما يدور في عقولهم خوفًا من بطشه، كان ذلك مرضيًا له، مرضيًا إلى أقصى درجة، لا يحتاج إلى أكثر من هذه النظرات الغاضبة والحانية، ليقرر مغادرة المكان، وهو يشعر بالأسف على تلاميذه في صحبة رئيس تحرير لا يعرف أصول العمل الصحفي، لن يسمح له بالتمادي أكثر من هذا، سيخرج بهدوء حتى يخرسه إلى الأبد، عبر الممر إلى الصالة، ورأى ظلال عددٍ كبير منهم تسقط عليه، كان رجل الأمن متسمرًا أمام الباب وفي عينيه تعبيرٌ لم يستطع تفسيره، لم يهتم على أية حال، كان عقله صافيًا، ولم يلق بالاً لتهديدات رئيس التحرير لرجل الأمن إن سمح له بدخول المكان مرة أخرى، ولكن ما أربكه أن مدير تحرير بدأ يوبخ بدوره رجل الأمن، غير أن ذلك لم يستغرق منه لحظة، كان يفكر في تمساحه، ثم التفت خلفه ووجدهم ينظرون إليه، كانت هذه هي أكثر لحظة مناسبة لإلقاء قنبلته، أشار إلى أقدامهم صائحًا أنّ عليهم الاحتراس حتى لا يدوسوا على تمساحه، لم يكن يضحك وإنما أمال جذعه وحرّك رأسه كأنّه يبحثُ فعلاً بين أقدامهم، وبدأوا رغم دهشتهم الشديدة في التحرك، مبتعدين عن بعضهم، كأوراق "كوتشينة" سقطت من يدِ أحدهم، وتبعثرت في كل مكان، كان بعضهم يبحث فعلاً عن التمساح بينما كان بعضهم

الآخر ينظر إليه وهو يفردُ جسدَه باعتداد فاتحًا الباب الزجاجي ومتجهًا إلى الخارج.

الصفحة

إهـداء ٥

دراجة تعيد رفيق الحزب القديم ٧

الغرف المنسية ٢٣

"معزة" جوركي ٣٩

العرض الأخير ٤٩

النوم مع فتاة مودلياني ٦٣

إشارات حمراء تفضي إلى بحر ٧٥

ليلة العقرب ٨٥

حروب فاتنة ٩٩

ماء العقرب وتراب العذراء ١١١

ضحكات التماسيح ١٢٣

يظل حسن عبد الموجود في مجموعته القصصية الحديثة "حروب فاتنة" مخلصًا للاتجاه الذي ظهر في بعض قصص مجموعته السابقة الصادرة أيضا عن الكتب خان بعنوان "السهو والخطأ"، مطمئنا إلى قالب "القصة القصيرة" الطويلة، مقتنعا بضرورة أن تحتوي القصة قصة لا ملامح قصة، وشخصيات لا مجرد أسماء خالية من اللحم والدم، وأحداثا لا تهويمات تجهد ذهن القارئ بدون أن تقدم له مكافأة على عنائه.

قد يبدو أن لقصص "حروب فاتنة" - أو لبعضها على الأقل - مذاق الرواية أو ربما النوفيلا. في كل قصة، نحن بإزاء عالم مكتمل يمكن للقارئ تحديد زمانه، وتلمس جغرافيا أماكنه، ووضع يده على الأزمة أو الأزمات التي تواجه شخصياته، فيتسنى من خلال ذلك كله أن يقيم القارئ علاقة حقيقية مع النص تتجاوز الفرجة عليه من الخارج.

من قصة تلقي الوحدة المصرية السورية ظلالًا عليها، إلى قصة خلفيتها ما جرى للحزب الشيوعي، ومن قصة ساحتها وحدة عسكرية، إلى أخرى تطل شخصياتها على سجن طرة، ومن قصة يحتم على شخصياتها الصعود إلى قرية معلقة على أحد جبال اليمن، إلى قصة تتيه شخصياتها في شوارع مسقط، يبحث حسن عبد الموجود عبر عشر قصص طويلة هي قوام مجموعته الجديدة عن عناصر وشروط لعبة قصصية متقنة يورط من خلالها شخصياته - وقراءه بالتأكيد - في عوالم توشك أن تطابق عالمنا الواقعي، لولا انحرافة بسيطة هنا أو هناك، تبتعد بنا عن ألفة الواقع بقدر ما تتيح لنا المسافة الكافية لتأمله ورصد أفعاله في أرواحنا.

لا يتحرج حسن عبد الموجود، بعد سنوات ساد فيها النفور من القضايا الكبرى، من طرح أسئلة كبرى حول الغواية والعزلة والسلطة والحب والخوف. ولا ينفصل عن تيمة من تيماته الأساسية في كل ما كتب من قبل في قصصه ورواياته: تيمة الإنسان المفعول به، الألعوبة في يدة قوة قد تكون مختفية في مكر، أو ظاهرة في وقاحة، لكنها دائمًا قوة غاشمة لا يبدو أن ثمة مهربا منها.

حسن عبد الموجود، روائي وقاص مصري، صدرت له مجموعتان قصصيتان هما: "السهو والخطأ" و"ساق وحيدة". وروايتان هما: "ناصية باتا"، و"عين القط" التى حصلت على جائزة ساويرس الثقافية فى 2005، وترجمت إلى اللغة الألمانية.